غَفْوة حوّاء

محمد ديب

غَفْوة حوّاء

رواية

ترجمة محمد ساري

منشورات الشهاب

© منشورات الشهاب، 2011.
10، نهج ابراهيم غرفاء، باب الواد، الجزائر.
www.chihab.com

ردمك : 978-9961-63-882-8
الإيداع القانوني : 5500/2011

صدر هذا الكتاب في إطار
تظاهرة تلمسان عاصمة الثقافة الإسلامية 2011

أنا المُسَمّاة فاينة

عطر ثلج

- 1 -

لقد خيّم الليل. أنا هي : فايْنَة. إنّني معك يا صُلْح، في انشغالاتك، في همومك، وراحتك وأحلامك... وأغصان الزَيْزَفون. ذلك الزيزفون الذي ينتصب أمام نافذتك في «كليرفال». وقد حدّثتَني عنه مرارا. **أنا المسمّاة فايْنَة. لقد سكتُّت، ولكن صوتي لا، غير مهم، الصوت الذي يقول أنا ويواصل الكلام. الصوت الذي يستَفهم ولا يتحادَث إلا مع ذاته. كلام يتحدّث وحده مُخاطبا إياها حيث تكون.** أضَع رأسي فوق ركبتيك، وأتلمّس وجهَك بأصابعي. هل تَبحَث عنّي أنتَ أيضا ؟ إنّي هنا، بداخل توازن سماجات الأعمال المنزلية الصغيرة. شقّة والديّ، ليس إلا. كل ما بالبيت يؤدي وظيفته كما ينبغي. الأيقونة المغلّفة بالسلّوفان كي لا تتّسخ، وفي المطبخ عشرة قفّازات من مختلف المظاهر والأعمار، لأنه من السهولة بمكان صنع واحدة بمجرّد استعادة قطعة قماش، وجبال من العلب الفارغة، وورق التغليف. وماذا أيضا ؟ لا شيء يُرمى. ولكن الغريب في الأمر أن لا شيء يُشتَرى أيضا. إنه تكويم لهبات

الأصدقاء، سقط متاع جلبته وفاة أقرباء. لماذا أُعِدّ لَك جَميع هذه الأشياء ؟ ربّما لأن لهذه الأشياء سلطة حمايةَ شبه سحرية عليّ. لا ألاحظ مظاهرها. أكلّمها كما تفعل أنتَ مع زيزفونك، وهي تكلّمني. **كلام يتحدّث وحده حيث يكون.**

أنا مُتعَبَة.

إلى الغَد.

يوم جديد منذ وصولي إلى «بوهجان»، وكم من ذهاب وإياب للأصدقاء، للأقارب ! خالتي، ابن خالي، معرفة عائلية قديمة، الخياطة. هكذا يُحْتَفى بعودتي. زيادة إلى مُهاتفة «تولي». ثرثرَت طوال ساعة كاملة. وقت سمَح لي بحَبْك صُدَيْرية.

في البداية، يؤلم هذا الفراق قليلا. قمت بزيارة صديقتي «مايجا-لينا» مساء أمس. ضمُرَت بعشرة كيلوغرامات، ولكنها لا تزال في صحة جيّدة، بل واستعادَت ثقتها بنفسها شيئا ما. قالت بأنّ البحث الدائم عن رَجل شيء محزن، خاصة إذا عرفنا أن حظوظ الخطأ أكبر بكثير من حظوظ إيجاد صديق حقيقي. ينتهي بنا الأمر إلى إيجاد العزاء في كمية الطوابع التي يضعها فوق بطاقته شبه الفارغة بعد ذهابه :

(.Just greeting from… Yours : X)

الجوّ جميل. درَجات قليلة تحت الصفر وشمس ساطعة. ولكن لا أثر للثلج. بعد لحظات، سنذهب أمّي وأنا للقيام بجولة في المقبرة.

ها أنا معك من جديد، يا صُلْح. الجوّ بارد اليوم نوعا ما. حينما خرجت قبل قليل، كانت هناك عاصفة صغيرة.

مشيت طوال تلك الشوارع المجاورة لفندق أكاديمكا والتي تعرفها جيدا. لا تزال دائما مكْفَهرة ومغبّرة. يتحوّل الثلج المتساقط إلى غبار أبيض ويواصل رقصته على الإسفلت. الزاوية الأكثر عرضة للريح : - محل الرخامي، هل تتذكّره ؟ كانت الساعة الثامنة مساءً، مع قليل من الناس في الخارج. إحساس بمدينة أُفرغَت من سكانها.

بالأمس، بدَت لي المقبرة حيث رافقت أمّي فارغة تماما. وصغيرة أيضا بشكل مثير للسخرية. ربّما لأننا نستطيع الرؤية من طرف لآخر، عبر ممرات أشجار البتولا الخالية من الأوراق.

كل شيء يجرحني في محيطي ولا أعرف السبب. طول الانتظار ؟ ربّما. أم غيابك. أم تغيير الإقامة بمجرّد الشعور بالألفة في واحدة.

كما حساسية الروح التي لا تخفّف عنها الكتب ولا الأحاديث. أنا بحاجة إلى صبر أكثر ورسالة منك. بعد ذلك، سأجد نفسي في حالة أحسن.

أُقبِّلك في طرف قدميك، حيث أنتَ في غفوَة المياه السوداء التي أنتَ فيها. لا أريد إيقاظك، أجلس إلى جانب سريرك وأبقى ساهرة عليك بكل حناني.

وددْت رؤية صوره ثانية. حَنين مُرعب. ولكنّني أعرفها أكثر من اللَازم، فلا داعي. على كل حال، أعثر مجدّدا على يديه بالإمعان في يديّ، وعلى قدميه حينما أتفرّج على قدميّ. إنّه بداخلي، قريب جدا حتى أتمكن من النظر إليه – وأراه في الوقت نفسه. إنّي ممتلئة، إنّي مغطاة بصُلح.

بي رغبة رهيبة في النعاس، رغبة ليلة حيث أحب ضَمّ صُلْح إلى صدري.

قمْت هذا الصباح بزيارة إلى عيادة الولادة. تلك التي سألد فيها. وبما أنها تقع في وسط الريف، رأيت لأوّل مرّة ثلجا سليما هذا الشتاء.

لا تتصوّر يا صُلْح تلك السكينة التي تغمُرنا في هذه الكثافة المبطّنة. بدءًا تجعلك أصمّ. إنّ الضوضاء القليلة التي تصل إلى أذنيك ليس لها منابع واضحة المعالم، ولا تعرف إنْ كان المتزلّج يمر قريبا منك أم بعيدا، إن كانت الطيور المحلقة توجد خلفك أم أمامك. ويبقى صرير الأحذية الخشنة التي تنْغَرس في الزغب الليّن الصوتَ الوحيد الذي يسهل التعرف عليه.

أفكارك تقترب منك، تلتصق بك، ولست بحاجة إلى الكلام. إلى أن تتكلّم بصوت مرتفع. ولكنك تتكلّم. يوجد كل شيء ملفوفا في هذه الكتلة البيضاء المتلألئة. لا يوجد إلاك، تتحرّك وتتكلّم.

وهناك الرائحة. يكون البرد القارص والقاطع مُشرَّبًا بعطر خفيف من الصنوبر المَصْقوع والأزوت المحلق. يمنحك النور الذي

ينفذ إلى أعماقك رغبة في شرب نقاوته، كما الأطفال حينما يأكلون الثلج. لا يأكلونه لأنهم يشعرون بالعطش أو الجوع، ولكن لأنه نقي ولامع وعصي المقاومة.

إذا حدث أنْ وضعْت حدا لحياتي، سيكون في مثل هذا اليوم، بداخل غابة يغطيها الثلج الساطع. سأذهب لِأَمْنَحَ نفسي للثلج، سأتركه يغطيني. ربّما كانت مسألة رائحة. أفضِّل نقاوته على رائحة الهواء والماء والتراب.

ربّما أردْت أنْ أَقول شَيئا آخر يا صُلح، ولكنّي قلت هذا الكلام.

- 2 -

ليس بمقدوري أن أفعل شيئا : استيقظت هذا الصباح على الساعة الرابعة، ولم أتمكن من النوم ثانية. دخلت في حالة أعرفها جيدا، حيث أشعر أنّي قادرة على الرسم في الهواء واستخراج الصور الأكثر غرابة من الظلام الدامس.

كما أرى يَدَي وذراعَي صُلح تمْرح أمام عينيّ. (وهو باقٍ في الظلام). إنها حقيقية، حقيقية جدا. باستطاعتي لمسها ووصف تشكّل كل ظفر والأمكنة التي ينبت فيها الشعر، يوجد بها أخدود.

نحن معا، ولكن أين ؟ – في اللامكان. في مكان إنكاري. تحدّثنا معا، ثمّ فجأة، مُسخنا من كائنات بشرية إلى تلك الشبكية التي تُحمل المُؤن بداخلها. الشبكية التي انفتحَت

بنفسها وتحوّلت إلى بلد كثير الأودية، شبيه بذلك الذي نَعْبُره للذهاب إلى «مونفور لاموري». وبعد ذلك أضحَت الحقول طاولة لعبة الشطرنج. كانت أيادينا تُحرّك القطع الخشبية. عُزِلنا في مناخ يجمع بين السواد والرمادي. المكان ؟ منزل «رافَل»؛ ضاق بنا المقام ومع ذلك كنا في أفضل حال. و...

يجب أن أتخلّص من هذه الهذيانات، أمّي تناديني.

من جديد، أشعر بالإرهاق. مع أنّه لا توجد إشارات تعلن قرب لحظة الولادة. إغراء قاضم للهرب، بأن لا أُخرِج هذا الطفل إلى الوجود.

هذه الليلة أيضا، رأيت صُلحْ في المنام. كنت على وشك أن أمنح له عُنواني. ولكن لا شيء أعقد من الحي الذي أقطن فيه – إقامة جامعية على الطريقة الأمريكية. نزلت إلى غرفة استقبال العمارة لأستفسر عن الرموز البريدية. كان هنا، بنفسه، وكتب لي على طرف من ورقة العنوان الذي أردت إبلاغه إياه. هذا كل ما في الأمر. كان في الأسفل ينتظرني برسالة في اليد تحمل عنواني.

دائما لا كلمة عن صُلح.

هذا الصباح، بعثت له رسالة بتاريخ الغد. عشت يوما قبل أوانه.

الحالة المعنوية ليست على ما يرام.

سوف لن يتلقّ رسائل من عندي لبضعة أيام. سوف لن يقلق، هذا ما أتمناه. أشعر بنوع من الصمت يغمرني؛ أشيح وجهي عن كل شيء، وعنه أيضا. ولا يوجد دواء للتخفّف من هذه الوضعية. يجب ترك الزمان يفعل فعلته. أريد فقط إغراق يدي داخل شعره، حكّ رقبته.

خيّم الليل. لا شيء، ولا رسالة من صُلح. يسقط الثلج بندائف غليظة. قمت بدورة داخل الحي، بقرب المقبرة. يا له من صمت ! لا أحَد، لا أثر للخَطوات. ثلج بكر. صنوبريات ميدان الاستراحة، وحدها مع الأموات. تواجهك بسحنتها الرصينة. مشيت بفم مفتوح كي يستنشق الجنين في بطني قليلا من هذه السعادة.

على مسافة غير بعيدة، على منحدرات صخرة «الفاينامونان»، كان طفلان يصرخان وهما يهبطان فوق مركبة الجليد. حين وصلت إلى مستواهما كانا في الأسفل، طفلان في حوالي السادسة أو السابعة من العمر.

قالا مقهقهَين بضحكات ماكرة : «أنظر ! أنظر هذا !». كانا يشيران بالأصبع إلى بطني.

إنه لشيء مسلٍ لعصفورين مثلهما، أن يريا بطنا مُماثلا. مُسَلٍ لا غير ؟

لقد ابتعدنا كثيرا، الواحد عن الآخر، خلال هذه الأيام القليلة. إنّ تلك الثقة الساذجة التي سادت بيننا في البداية لم تَعُد موجودة. ربّما كنتُ المتسبّبة في هذه الحالة. لو أفكّر في

ليلتنا الأخيرة، ستؤكّد الحركات وطريقة النوم على الإيمان، ولكنه لم يشمل التفكير قط. إنه لشيء مؤسف حقا. خاصة وأننا نحسّ أننا بقينا مرتبطين. لا أظن أنّه نتيجة فتور مؤقّت في العزيمة من جهتي. سأجتر الشيء نفسه حتى وإنْ كنت سعيدة ومبتهجة بالشكل الكامل. ربّما كان الأمرُ سَيكون مختلفا لو كنا نعيش معا.

لقد وصل كل واحد منا إلى حافة ميدانه الخاص، وأنّ لا أحد منا يتمنى الذهاب أبعد من هذه الحدود. عند انتهاء مرحلة الاكتشاف، لم يبقَ شيء نتساءل حوله، سوى :

– «لا بأس ؟ نعم، لا بأس».

هناك تقليد عندنا يَعتَرف لشجرتَين بوضع خاص في حياة الكائن البشري. يُعيَّن كلاهما بكلمة تَتشكّل من جذع مشترك : كوتي، المنزل، البيت الذي يأوينا. إنهما صنوبرة (المنزل) كوتيكوسي، وبتولة (المنزل) كوتيكويفا. في الريف، من العادة أن نترك صنوبرا جميلا وبتولا أنيقا ينبتان قرب المنزل. وتكون الشجرتان أحيانا قريبتَين جدا من قناة المَدخَنة، ما يجعلها عُرضة لالتهاب الحرائق. يَصل عُمر بعضها إلى قرن، ما يعادل ثلاثة أجيال. وتُحكى عنها حكايات، تندرج من سنة إلى أخرى ضمن الوقائع العائلية.

الصنوبر شَجَر حارس. دافئ، يحمي من المطر، من التوعّك، وبالأخص من الصاعقة. عادة ما نرى صنوبرا عجوزا شُقَّ إلى نصفين. يتعلّم الأطفال لعبة الحياة بثماره الساقطة من أغصانه،

والتي يحوّلونها إلى أبقار وكباش وخنازير. يَصنَعون عند أسفلها منازل شبيهة بالتي يتخيّلون امتلاكها عندما يكبرون، ويقدّ الأثاث في القشرة.

الصنوبر شيء متين ودائم. رمز للأمان.

في المقابل، تُعتبر البتولا شجرة للأحلام. بدءًا، إنّها تفقد أوراقها في الشتاء. سبب أوّلي يجعل الناس يصفونها بالجنون. تتقمّص دور الشجرة الجنية التي تجذب النجوم إلى أغصانها العارية أيام البرد. يحب الناس إشراك النجمة القطبية إلى البتولا. وفي الصيف، تُعلّق الأرجوحة على غصنها القوي لتجلس عليها الفتيات، مغمضات العيون، ليسافرن بعيدا، بعيدا جدا، نحو ممالك الأحلام، في ذهاب وإياب، يجمع الأوراق والسماء والغيوم معا. وهناك من يهيّئ عُشا للقراءة. وهنا تُستخدم الأغصان الأكثر قوة، الأكثر مُلاءَمة. نعرف قصصا مؤثرة عن رجالنا العظماء الذين كانوا في طفولتهم يختلون إلى مثل هذه الملاجئ للقراءة.

عندما نغيب، عندما نتواجد في الخارج خاصة، تتأجّج صورة البلد عند ذكر أشجار البتولا. أن نحلم في الصيف، يعني بالضرورة التفكير في البتولا.

بدت لي هذه الأزمة التي أمرّ بها أعمق من الاكتئاب العادي. أحاول أن أبدو عاقلة، أن أتحكّم في رباطة جأشي. بكلمة واحدة، أن لا أسقط في اليأس.

كم أرغب في أنْ لا أكون كذلك. ومع ذلك، أشتغل بشكل عادي. أجتهد لأظهر ودودة مع الآخرين، أن أكون معهم. الشيء المؤكّد : يرعبني فراغي.

لم أكن أتوقّع تلقّي الأخبار منه عندما وصلتني رسالته الأولى. شكرا. أشعر أنّي أَحْيَا ثانية. عندما أنفرد بنفسي أتحدّث كثيرا مع صُلح. **ما أنت فيه بداخلك ويريد أن يخرج إلى الهواء الطلق. الشيء الذي يُفرَغ منك ثمّ يعود ويملأك. هذا الكلام. كلام منفصل عن كل شيء ليتحوّل بدوره إلى كل شيء**. آه، كم أنا مُرهقَة... ما العمل ؟ هذه حالتي.

- 3 -

إنها العاشرة والنصف صباحا. أنا في مركز البريد. سأتمكن من الحديث لصُلح. أنتظر المكالمة. الأمر أسرع في العادة.

يبعد مركز البريد بثلاث محطات أوتوبيس عن بيتنا. لم أكد أغفو هذه الليلة بعد مُهاتفته لي بالأمس. في غفوتي المضطربة، أمسكتُ وجهَه بين يديّ طوال الوقت. الغريب أننا في 23 مارس ولم أتلقّ منه إلا رسالتين. أذهَب يوميا عند صديقتي «مايجا-لينا» أستفسر إنْ وصلت رسائل أخرى. لا جديد. إنّ توزيع البريد لا يشتغل بالشكل المطلوب. كلامي لا معنى له. أنا مُرهقَة جدا – ليس من الناحية الجسدية.

قرأت رواية كاملة في ظرف يومين. اسم المؤلف «أيْنو صايْصا»، وعنوان الكتاب «الصيف الأخير». إنها قصّة أمّ تموت بسرطان وسط أهلها.

تلقيت اليوم رسالتين من صُلح، الواحدة مؤرّخة في 18 والثانية في 22. إنه قلق جدا عليّ. لا يعرفني بالقدر الكافي. أقول الأشياء مثلما أحسّ بها، حسب مزاج اللحظة، وكل دقيقة تأتي بالجديد. لا أستطيع فعل أي شيء. قلبي مُنكّس الآن؛ بعد لحظة قصيرة، سيتغيّر الوضع، ولن أتنفس إلا الفرح والشجاعة. ربّما ينبغي تذكيره بهذا الأمر كي لا يُصبح شقيا جدا. فاجأتني مكالمته الهاتفية. حاولت تذكّر ما كتبته له ويكون قد شوّش ذهنه إلى هذا الحدّ. بقيت ذاكرتي صمّاء.

كان اليوم المعلوم، يوم 17 مارس، متعبا حقا. ولكن ليس إلى حدّ... فجأة فقدت الثقة في كل شيء- لم أنسَه. لقد عشت شيئا لم أعرف كيف أسميه له. لو كان هنا، لقام لمواساتي بمداعبة. ولكنه كان بعيدا. إنه بعيد دائما. على كل حال، حينما تنتابني هذه الحالة، لا تستطيع الكلمات ولا المحاجَّات فعل شيء. فقدان كلي ومطلق للثقة، لا ينبع إلا منّي. أنا أمام هذا الكون، أمام هذا الوجود.

هذا ما كان يؤلمني وأكون قد كتبته له بعفوية طائشة. أكون قد تركت نفسي تنساق على هواها، واعترفت له بهذا التيه الجنوني إلى أغوار كياني في وقت صمتت فيه جميع الأصوات. كتب لي قائلا : «بلدك هو السبب». ليس لبلدي دخل في أي شيء.

أسوق مثالا، ربّما ساعد على إيضاح مقصدي : السهرة التي قضيناها معا عند جوهان منذ فترة ليست بالبعيدة؛ على

كل حال كنّا في باريس. أجهل إنْ كان هو لا يزال يتذكّر. والليلة التي تلَت. ما كان بالإمكان قولها أو شرحها. لم أتحمّل مداعباته، كانت تقلع جلدي. كنت أجهد نفسي كي لا أتخبّط وأركض إلى الطرف الآخر من المعمورة. هكذا يحدث دائما حينما يشوّش بالي شيء ما. فيصبح الشخص الأقرب إليّ مَقيتا، وأتغيّب عن نفسي. كي أستنشق الهواء، كي أنسى. إنّ ما بقي من نفسي بعين المكان ليس مسئولا عن أفعاله. في تلك اللحظات، أصبح عاجزة عن حبّ صُلح، عن معاملته برفق : لم أعد أنا. لا توجد إلا أجنبية وتحمل وجهي – لكن خطوط الوجه ليست لي. هل سيفهم صُلح مثل هذه الحالة ؟ أهرب من جسدي ومن تفكيري كلّما أحسّ بقوّة تتحرّك بداخلي، قوّة أسميها بـ»الملوّثة». لو أُغدقت كلاما رقيقا، عطوفا، **لاختفيت** أكثر. في ذلك المساء، كانَت «جوهان» هي القوّة «الملوّثة».

أغادر نفسي أكثر مما يتصوّره ويلاحظه. يُمكن أن أكون بين ذراعيه، أثرثر «عاديا». في تلك اللحظة، يكون أناي الحقيقي غارقا في عمق بئر يصرخ طالبا النجدة. ومع ذلك لا أظن أن الأمر خطير بحيث يشكّل مرضا. ولكنه شاق جدا أن أكون كما أنا. سواء بالنسبة لي أو بالنسبة للذين يحبونني.

كي يكون سلوكي لائقا، يجب أن أصارحه بالأمر، ولكنّي عاجزة. أقول له أنْ يعدّ إلى غاية المائة قبل أنْ يخشى شيئا عنّي، أنْ يهيّج ذهنه على ظهر «مغامراتي الطائشة». في العادة، أعود منها دون عناء يُذكَر، سالمة غانمة، وأكون قد

نسيت كل شيء. ولا يَصعب عليّ بعد ذلك أن أندهش وأنا أسترجع كلماتي وأصف أفعالي وحركاتي. إنْ اعترفت بها، ليس إلا من أجل أن أرى الدليل بأنّ شخصا آخر قد استولى على صوتي وسلوكي.

تقترب الساعة من الخامسة صباحا. أيقظني الألم، ألَمٌ تسبّبت فيه وضعية رديئة. لا أعرف ما هي الوضعية المريحة مع بطن منتفخ بهذا الحجم. عند الأسفل، في الشارع، يكشط البوابون الأرصفة. سقط كثير من الثلج في الأيام الأخيرة. تمرّ أولى عربات التراموای جارة خلفها صرير خردتها. بالأمس أو أوّل أمس، شبّ حريق في عمارة مجاورة. يقال إنّ حرّاقا هو الذي يشعلها. إنه المنزل الثالث الذي يخرّبه الحريق في ظرف أسبوع. تنطلق الأشياء دائما عندما يطفح الكيل. النيران بداخلي أنا أيضا.

قبل قليل، في لحظة غفوة خفيفة، أبصَرت رُؤيتَين. رؤية حديقة أوّلا، والتي عرفت أنها ملكي. كنت أتجوّل بداخلها عندما داهمني وحش أشبه بسيارة مسحوقة في حادث. بالطبع، لم تكن لديّ القوّة لمواجهة مثل هذا الغزو. بدت الحديقة نفسها غريبة. لم تكن تمتد عبر مساحتها. كانت على هيئة تمثال، نوع من التمثال رأيناه معا، صُلح وأنا، على قبر «هنري لورانس» : جذع قوي، مهيب، الاهتمام دائر باتجاه الداخل. ومع ذلك لا يمكن أن تكون إلا حديقة. ليسَت جميلة. تميل نحو التوحّش، مع وفرة النباتات والأحجار المُطحْلبة، وكذا نوع مميّز

من السرخسيات. تنتصب أشجار أيضا. أشجار قلقة، بأغصان متدلية تذكّر بالشعر المنطلق الذي يجري كما المياه الخالدة. كانت الأشجار بيضاء اللون تحت أوراقها الصغيرة جدا. كما لو أنها لم ترَ أبدا ضوء النهار. ومع ذلك، لم ينقص الطحلب والسرخس بهاء الألوان. كانت تنبعث منها روائح عطرة. كنت جالسة في تلك الحديقة التي من المفروض أنها ملكي. وكنت أفكّر في الوسيلة التي أنقذ بها ملكيتي من الخطر الذي يهدّدها ذلك الذي لا شكل له، الشيء القميء الجامد الذي يبدو أنه سيلتهمها بفعل حضوره فقط. عندئذ، وفي قرار فظ، تجاوزت قرفي، وولجت داخل الوحش المتشنج، البارد، الساخن، وهناك وضعت مَوْلودي.

كان إطار الرؤية الثانية أيضا حديقة. تنبت في هذه الحديقة شجرة برتقال. سبق لي أن رأيت شجرة برتقال وحيدة في جزر الكناري، في تينيريف، عند أسفل بركان قديم. في حلمي، كان هناك خيال ظل في مكان البركان، ولكنه عظيم، وله أجنحة. كنت أتجوّل وأنتظر : شخص، شيء ما ؟ في واقع الأمر، أعرف أنّي كنت أنتظر برتقالة. أن تُمنَح لي واحدة. أشجار أخرى تحيط بي. وعوض أشجار البرتقال، كان هناك رجال مُحجّرون، ليسوا أحياء ولا أموات، ومع ذلك كنت متيقنا أنهم يستطيعون التصرّف مثل الكائنات الحيّة. أمّا في هذه اللحظة، إنها جامدة، ومنغلقة في صمت صارم. مشيت طوال الممرات. تنبعث من الجوّ روائح عطرة، عطر برتقال. مع أنّي لا أميّز البرتقال في أي مكان. وبعد ذلك بدأ فجر اتّخذ لون البرتقال يصعد من

تحت الظل والأجنحة. جَرفتني رغبةٌ فظّة للمطالبة ببرتقالة من أولئك الرجال الأشجار. كنت متيقنة تقريبا بأنّي سأتلقى واحدة من أيديهم، لامعة وغزيرة العصير. ولكنّي لم أقرّر بعد صياغة طلبي. مرّت الدقائق. في النهاية، تحرّكت نقطة صغيرة، لُيَيْفة وحيدة، في الحديقة المصعوقة – فأر، طائر ذبابي : من الصعوبة تحديد هويتها ذلك أنه لا يوجد حولي لا تراب ولا هواء؛ شيء، بهيمة، ولج داخل عيني، فاستيقظت.

أحبّ صُلح. أحبّه إلى حَدِّ الموت.

إنّي مرهقة إلى حدّ أنّه يجب عليّ تجنيد كامل قوايّ كي أقوم بأدنى فعل، أنطق بنصف كلام. ستتغيّر الحياة بوصول أوليغ.

سنحتل، نحن الاثنَين، منزل والديّ الريفي اللذين سيبقيان في المدينة. سوف لن أكون مجبرة على النهوض وإشعال النور في هزيع الليل. ولكن لا أحد سينزع لي حرية الحديث إلى صُلح في صمت أيامي وليالي.

ما إن عبَرت هذه الكلمات ذهني حتى أحسَست لأول مرة، وأنا ألمس نهديّ، بالحليب يتدفق وقد بلّهما كاملين.

استحال عليّ النوم ثانية. وصلت الساعة إلى السادسة صباحا.

فكّرت في الجنين الذي ينام بداخلي. الآن أعرف : سيُسمّى «ألكسي» إن كان طفلا. لا يمكنه أن لا يحمل إلا هذا الاسم.

يا له من اسم جميل، ألكسي، رجل الربّ. في الروسية، لا يعبّر هذا الاسم عن علاقة سيّد بعبده، وإنما فقط معنى الحماية. شيء مثل : الرجل المحظوظ، الرجل المحمي. اسم لامع، لو حدث. يحمل نفس حنان الدُعسوقة حينما تتحوّل إلى **بهيمة الرب**. إشارة واضحة إلى الإنجيل، اسم يزن بكامل ثقل أهل الكتاب.

وإنْ كانت طفلة، ستُسمّى **صوفيا**، بالتشديد على الياء، صوفيّا. النور، الحكمة، التوازن. بالطبع، لا أرغب في طفلة على شاكلتي : طفلة دائمة، كائن بلا كثافة. أريدها متقدّمة عليّ، أو بالأحرى في مقدّمتي، ومتفوقة في كل شيء، وإن كانت محلقة كما سائل الإثيَر. يجب عليّ أن أضرب بشدّة على جميع الحواجز قبل أن أعثر على طريقي. لا أتمنى لها ذلك.

صوفيّا. خمّنت مع نفسي، نعم، وملأني سراب بحر. سراب تنقلب فيه ألوان السماء والماء : زرقة سوداء للسماء الصافية، وشفافة عند الأسفل، وشحوب متلألئ للبحر، النبع الوحيد الذي يستقي منه النهار بريقه. بحر متوقّف، يعلّق نفسه، باستثناء شريط طويل تحرّكه رعشات عصية الإدراك. أوهام أخرى.

آه يا صُلح، لو تعرف كم أنا ممنونة لك بالوجود، حينما نتواجد أنت وأنا على هذه الأرض، على أرض واحدة. آه لو تعرف...

لَكْس

- 1 -

ابني نائم. كانت أذنه على شكل جَزْع منقوش ناعم تنظر إليّ من عمق السلّة. للرضيع عطر طيّب، ناعم، ناعم جدا ! لا يضاهيه شيء في الدنيا. أعدَدت حمّامه وأنتظر استيقاظه. تقترب الساعة من السابعة مساءً.

حاولت طوال النهار أن أستذكر أحداث السادس من أفريل. ولكن بداخلي فوضى عارمة. تمكّنت من اجتثاث بعض الصور من هذه العصيدة –كيف وَلَدتُ. ولكنها تتبخّر بمجرّد تشكّلها. الفوضى من جديد. سأنتظر هَزيع الليل الأخير. ربّما نضجت الصور.

لا، ليس بعد، لقد سقط الليل منذ فترة. يُظلِم المخَّ نفسُ الضباب بمجرد أن أحاول رؤية نفسي داخل الحاضنة المعقّمة لعيادة التوليد.

الآن، ليسَت لدي إلا فكرة واحدة : أن آكل الدم. نعم آكله لأنّي أمقت شربه. يأتي على شكل أرغفة الشَيلم المشرّبة بالدم

عوض الحليب أو الماء. فمنذ مُغادرتي المستشفى، ليست لديّ الشهية للمأكولات الأخرى. في المقابل، شُغفت بخبز الدم هذا. في العادة، لا أهتم كثيرا بما آكله. الآنَ أضحى عندي وَلعا. كما أضحى يُبهرني لونُ الأرغفة الأسود. أقضمها مُرفقة بعنبيات النيّئة، الحِصرمة الناعمة، بطعمها البريّ. هكذا آكل الأحمر والأسود. يجب على صُلح أن يرى هذا. أكيد أنه سيكون مرعوبا وهو يكتشف مَيلي الطبيعي إلى مصّ الدماء. **لا تنسَي يا فاينة أنّك سَتُسَمَّين «ذئبة» أيضا.**

ينام لَكْس ملء جفونه. يوقّع المنبّه الصمت بتكتكاته. في الخارج، تصرخ طيور الزُرزور. بَرد الحمام.

لم أتلقّ رسائل من صُلح منذ أيام. عاد الهدوء إلى البيت، تتملكني رغبة جامحة في مُهاتفته. ولكنّي امتنعت. سيطرت على رباطة جأشي. أنا متأكّدة أنّي سأُزعَج في تلك اللحظة بالذات.

لا يتشكّل يومي إلا من قطع صغيرة من الراهن. فسيفساء من الانشغالات الصغيرة. ثمّ فجأة، وسط هذه الانشغالات، يستقر صمت مطبق، بحيث يُخيّل إليّ وأنا آخذ حماما في الطابق الأرضي أنّي أسمع عبر خرير المياه أصوات أخرى: صراخ لَكْس، رنّة الهاتف، هدير الطائرات المحلقة فوق حيّنا، وإلى غاية تكتكة المنبّه. تضاعفت حساسية أذنيّ بحيث أصبحت صمّاء. في واقع الأمر، أسمع ما يطنّ برأسي أكثر مما يحدث حولي. الشيء نفسه بالنسبة للعينين. حينما أذهب

إلى المدينة، وأمشي في الشوارع، لا أكتشف إلا وجه ابني، بكل الهيئات التي يمكن أن يتخذها. فبعد أن نقضي اليوم في قطف الريحان، في المساء، مع النوم وإغماض العينين، لا نرى إلاّ الريحان، غير الريحان، سوى الريحان. أمام عينيّ تتضاعف صورة لكس إلى ما لا نهاية.

الآن، انقضى ذلك اليوم، الأربعاء 26 أفريل. تجاوزت الساعة التاسعة مساءً. ولا رسالة من صُلح. ماذا حدث ؟ أين هو ؟ إنّه من العبث أن أملك هاتفا في متناول اليد ولا أستطيع مكالمته. ولكنّي سأخرج بعد غد، ربّما وجدت الوقت الكافي لمكالمته من مركز البريد. مثلما تقول «مايجا-لينا» : قد نكتفي بكمية الطوابع البريدية التي يلصقها لنا على ظهر البطاقة. ينتهي بنا الأمر دوما إلى إرضاء أنفسنا بطريقة أو بأخرى. تعرف ماذا أفعل، أنا، يا صلح ؟ شَعري. أنزع الدبابيس التي تشدّه وأنا بالسرير، قبل النوم، وبعد أن أطفئ المصباح. وأتركه ينسَدل على كتفيّ. في الظلام، أتخيّل أنها يديك وتنفسك. ينتهي بنا الأمر دوما إلى الرضا بما عندنا. لا يُمكنُني الإعتقاد بأنّك نسيتني. ببساطة، تكون منشغلا بعملك بحيث أفقَد لك كل إحساس بالزمان.

غدا، ستكون رسالة داخل الصندوق، أنا متأكدة من هذا.

الحادية عشر مساءً، هكذا يشير مربّع المنبّه. خلال كل هذا الوقت، لم أسحب عينيّ عن ابني. أبقى الساعات الطوال أنظر إليه وهو نائم. يا لها من تعابير، يا لها من ذبذبات ترتسم على

وجهه ! إنّ الرضيع ليس تلك الكتلة من اللحم التي نتصوّرها، بلا إحساس ولا شكل محدّد المعالم. الآن، أصبحت مقتنعة بالعكس تماما، إنه يرى، يتأثر ويفهم أشياء كثيرة أفضل منّا، نحن الذين نُفقد له هذه الموهبة بعد ذلك بـ»تربيتنا». كم أرغَب أن أكون داخل رأسه الصغير !

كنت أناجي صُلْح بهذه الطريقة حينما هزّت فكرة مؤلمة قلبي. لم تكن فكرة حقيقية، هي أقل من هذا بكثير. إنه صوت بلا صوت، نبض، لا أعرف. على كل حال، له علاقة مع صُلح، ومعي ومع الموت. ما يتملّص أمام الكلمات. لذلك سأعبّر بالصور. لنتخيّل منزلا مُنغرزا، مُتجذّرا داخل الأرض، وعند مدخله لوحة عليها حروف منفصلة : و ا س ا ل ا. إنه التسجيل الوحيد. ويمنع الدخول. تساءلت لماذا، اندهشت، ثمّ بدا لي الجواب طبيعيا، في لمح البصر : «لأنّه بالخارج (آه، فقدت الخيط... إلهي، إنه الجنون...) نعم، بالخارج، بدأ الشيء الذي بيننا يناديني وينمو كما الصفصافة. بالفعل، أسمعها تنمو. تنمو. جاءت ترفّ عينيّ بأمواجها وبدأت الكلمات تتحرّك في عمق حلقي. هل كنت أتلفظها فعلا أم أتنزّه بها داخل كياني ؟ يجب وضع يدي على فمي كي أكتمها. ولكنها انزلقت بين أصابعي وتسرّبت. كلمات وكلمات. وأضاءت كل شيء، جميع الأشياء، ولكنها لم تتأخر من الانسحاب كلية لتكشف مكانا مغطى فقط بالطحلب والحشائش الجافة حيث لمع شعاع رقيق : إنه صوت صلح. صوت صلح المختزل في قطرة متلألئة. هذه اللؤلؤة التي تلقيتها في راحة يدي (تملكني إحساس بشدّ بيضة

فارغة؛ بي رغبة في الضغط عليها وخوف من سحقها) ولا أستطيع التحرّك. انغلقت عليها.

لا شيء من صلح في صندوق البريد. لماذا هذا الصمت ؟

المنزل فارغ. فارغ كلية. يقصّ عليّ لَكْس شيئا في لغته لا أستوعبه جيدا. إنه الآن في فترة الهضم بعد الحمام والرضاعة. أنا الآن بصدد أكل تفاحة. المُدْهش أنّي آكل بإفراط، وأشرب كميات كبيرة من عصير الفواكه ولا أحس بسمنة في جسدي.

آه، لو يستطيع رضيعي أن يكلمني بطريقة أوضَح. يثبت بصَره على قماش المهد. قطّب الحاجبَين وتنهّد. أضع يدي على جُمجُمته الهشّة مع أمل التنبّؤ بما يدور في هذا الرأس. يتدفق حليبي حتى خارج ساعات الرضاعة.

غَمَرني إحساس بأنّي لم أوجَد قبل أن أصبح أمّا. ربّما بدا هذا الأمر مبالغة مني، مُجرّد كلمات، بالكيفية التي استخدمتها. ومع ذلك، هذا هو واقع حالي. إلى غاية هذا اليوم، عشت إمّا في الماضي، إمّا في مستقبل وهمي، وخلال كل هذا الوقت، كنت محشوة بالأحلام، بالاندفاعات، بعشق شبحي، فيما لست الآن إلا لحما وترابا وحليبا. الآن لا آذان لي إلا لتنفس ابني. أنتشي برائحته. أبحث في نظرته عن أولى تباشير الحياة الواعية. أخيرا أنا موجودة. وكم أنا سعيدة لكوني المرأة الوحيدة في حياته ! لكوني أجمل امرأة بالنسبة إليه. برغم قبحي الراهن... خاصة عندما أرى بطني. إنه أشبه بالفطريات الدائرية الشكل كما البيضات والتي لا يتردّد الأطفال عن متعة

سحقها. ماذا يبقى حينما نرفس بالقدم إحدى هذه الفطريات : مسحوق رمادي وغلاف ليّن مدعوك. ما أقبح أن يكون الشيء قبيحا. ولكنّي لست بحاجة إلى جمال إضافي لابني. سأكون دائما في جمال يَسمَح له بأن يحبّني.

على الطاولة وردة لا تريد أن تذبل. نحن غارقون في نصف ظلمة. ينبعث ضوء خافت من المصباح السريري الصغير. يتجوّل لكس. أقول إنه يتجوّل عندما لا يكون نائما. لقد عاد الجار إلى منزله بعد أن قضى كامل الظهيرة يصلّح السقيفة التي انهارت تحت ثقل الثلج. أسدل الستائر وأشعل : لمع النور خلف نوافذه فجأة كشمس مختفية. إنه لطيف جدا، هذا الجار؛ وزوجته كذلك. لو لم يكن رجل اليوم، ولا يزال شابا، ويشتغل صباغا، لحسبناه من عفاريت الأساطير. مُستَعد دوما لمدّ يد العون، وفي كل مرة الكلمة الطيبة المناسبة، وكذا الحركة الواجبة. إن مثل هذا الحضور عند بابك مريح للغاية.

تلقيت من فرنسا الأفلام الشفافة وصور صلح في العلبة الواحدة. يا له من شقاء ! إنه مُتشنّج وبتقاسيم مجعّدة طوال الوقت. لم يبق لي إلا التوقف عن أخذ صور له. لا توجد إلا واحدة نراه فيها منشرحا، تلك التي يُقبّل فيها تولي في عيد الميلاد : هي بقلنسوة حمراء لبابا نوال على الرأس، هو بسترة بحرية حمراء. يقهقهان بطلاقة، هو الرقيق جدا، وهي القوية جدا ! ومع ذلك بدا كما لو أنه قادر على خنق عشرة توليات بذراعيه.

صور أُخذت هناك. جاء آيرو وتولي لقضاء حفلة نهاية السنة عندنا.

إنّي أثرثر دون توقف. ربّما لأنّي أظن أننا ابتعدنا من جديد عن بعضنا البعض. إنه لشيء طبيعي هذه المرّة.

أنهى لكس تجواله. انغمَضَت عيناه. انغلقَت قبضتاه. لم نعد نسمع إلا تكتكات المنبّه وحفيف طرّادة الماء التي تشتغل آليا. أكيد أن هناك تسرّبا للماء. يجب أن أكلّم أبي عنها.

هل ما أخفاه صلح في الخرطوشة الصغيرة غُبْرة هدفها تحويل الأشياء غير مرئية أم تعويذة ضد العين الحسود ؟ علّقت الخرطوشة في سلسلة ومررتها حول رقبتي. للأسف لم أتمكن من حملها في المستشفى، بسبب العملية، القيصرية. بسبب الحمامات الكثيرة التي أجريت لي أيضا. الأطباء صارمون في مسألة الحليّ. يُمنَع حملها.

خلال إقامتي في عيادة التوليد، اتّخذ صلح في نظري، برغم غيابه، مكانة القريب. كان يسهر على راحتي.

الحرية، العزلة، الرسائل، الصور. لا ينقص إلا صوته. سأكلمّه بالهاتف بمجرد أن أجد الفرصة السانحة.

لم تعد المسألة سهلة مثل السابق. يَجب أن أعود إلى البيت في وقت لا يتجاوز ثلاث أو أربع ساعات. كلما خرجت إلا وكنت بحاجة إلى القيام بمشتريات كثيرة.

لوْ تسمح أنْ أفارقك لحظة يا صلح ؟ سآخذ حماما في الوقت الذي ينام فيه لكس نوما عميقا. أقبّلك... ولكن أين ؟ إنّي أقبّلك بشكل عام منذ فترة طويلة، وينبغي اختيار المكان في هذه اللحظة. مثلا في مكان النبض، ثمّ طوال الذراع وإلى غاية الرقبة، ثمّ الحلق، والذقن، والفم.

- 2 -

كانت الساعة التاسعة والنصف صباحا تقريبا. كدت أكلّمه قبل لحظات. منعتني خشية غامضة. وها هي رسالته الآن في صندوق البريد. قبل فتحها، كنت أدرك المضمون الذي تحمله لي. قرأتها وأنا أرضع لَكْس. صرخ من أجلي طوال النهار.

إن الذي آلمني يا صُلح، ليست الرسالة، ولا أنت. مثلك أيضا، أنا أموت. سَوف لا يُمكنك التعرّف عليّ في هذه اللحظة، ولا شخص آخر. فاينة لم تعد موجودة. وحده ابني يتعرّف عليّ ويحسّ بي، ويعبّر عن ذلك بصراخه المؤثّر.

ستَرى يا صلح عند قراءتك الرسالة التي وضعتها في البريد هذا الصباح، قبل وصول رسالتك. لقد تقاطعت أفكارنا : لا أقترح عليك قطع علاقاتنا، بل التزام فترة صمت. قد تقول لي أن الأمر سيان. ليس بالنسبة لي. كنت مهيّأة لإهمالي، لإنكاري. أقبَل كل ما يحلو لك أن تقرّره. انتظرتَني، انتظرْتَ أن أقطع دربي الخاص نحوك، كنت في المكان التي كان يفتَرض أن أصل إليه بدوري وتنتظر. ولكنّي لم أكن حاملا في اللحظة التي طلبت منك انتظاري.

لا أحلم إلا بالعيش معك. أنت، أوليغ ولكس، تطالبون الشيء نفسه. نستطيع جيّدا وضع حدّ لعلاقاتنا يا صلح، لمَ لا، ولكنّي لن أتوقّف أبدا عن الحديث إليك في أفكاري. سيكون قدري ونصيبي – لا ليس حلما : الحقيقة التي بدونها لا وجود لي.

إذا كان قرارك نهائيا، سأبقى هنا، في هذه الحالة أريد التأكّد من الأمر. لا يمكنني استنشاق الهواء الذي تتنفسه دون أن أراك. لقد أمضيت اتفاقا مع أوليغ : بأن أبقى في البلد في حالة ما إذا اقتضت الظروف ذلك، في الوقت الذي سيبقى هو هناك. (من فضلك، لا تنزعج يا صلح، إذا كلّمتك عن أوليغ – إنه جزء من حياتي، لا أستطيع فعل شيء.) ينبغي عليّ اتخاذ بعض الإجراءات العملية، كإعطاء الدروس في الجامعة. عُرض عليّ الاقتراح ثانية ولكنّي اعتذرت معتقدة أنّي سأمضي الشتاء في فرنسا. لا يزال الأمر ممكنا من هذا الجانب. فإذا انقطعت علاقاتنا، أفضّل إرهاق مخّي في الرتابة الجامعية.

أفكّر جديا أنّ هذه السنة جعَلت من صُلح أشقى الرجال. ومع ذلك، إنْ كنا قد ألحقنا الضرر بأنفسنا، فإننا عشنا لحظات سعيدة أيضا. ومثلما يكون قد لاحظه، لا أملك أي حاسة للتوقُّع، عيبي الكبير أنّي لا أعرف الاحتياط للمستقبل. لا أتمنى منه شيئا. اللحظة الراهنة هي الشيء الوحيد الثمين في نظري. وفي هذه اللحظة أملك طفلا عمره شهر واحد وهو بحاجة إلى كامل عنايتي وعطفي. كما أنه بحاجة إلى أبيه، ومن حقه

أن يكون له واحد. أمّا أوليغ، فإنّ له من التسامح إلى الحدّ الذي يجعله يقبل، أو يفهم على الأقل، بأنّي مرتبطة بصُلح بكل كياني، ولحمي وفكري، بأنّ صلح أكثر من الرجل الذي أحب : إنه المرآة التي تعكس لي العالم. سواء كان قريبا أو بعيدا، حيا أو ميتا، يبقى هو الذي أعادني إلى الحياة ثانية. وبالتالي، سوف لن يكون توقف بالنسبة لي. ذابت أيامنا معا في تواصل ملتحم وأتقدّم هادئة، وهذا ليس بالأمر الهيّن دائما.

هل يزعجه الجانب السري من حبنا ؟ إنه يزعجني أيضا بلا ريب. ولكنّنا لا نستطيع، لا أستطيع التقدّم بسرعة أكبر. لا تغريني الزيادة في السرعة، إنّه طريق أكيد نحو الإخفاق. سأقدّمه هنا لأهلي باعتباره صديقا، أو بالأحرى كزوج من الضمير، ولن يكون أثر هذا إلا خلق وضعية عصية الاحتمال للجميع. لا لغة ولا مصالح مشتركة أمام طفل يبكي ويحتاج إلى عنايتي. سيكون شقاؤه أكبر وهو معي منه لو كان بعيدا عني.

أتذكّر جيدا اندهاشه، ثمّ غضبه، عندما علم أنّي اتّخذت أخيرا قرار الذهاب إلى بلدي للولادة. قلت له أنها مسألة غريزية. لا ننكر حتى للحيوانات حق اختيار المكان الذي تريد وضع صغارها فيه.

يا حبي، أحسّ بعمري يتقدّم وأحسّ كم أنا مرهقة كي أترك العاصفة تلج حياتي. لست إلا بيتا صغيرا يغلق مصارعه عند أول عصفة ريح. أستقبل بسرور أولئك الذين يدقون على

بابي، ولكنّي أرفض تدمير الجدران بنفسي. لقد دخلتَ حياتي ومنحتك كل ما استطعت. فإذا لم تعثر على راحتك، لك حرية الخروج، ولكن لا تنسى أبدا أنّي أحبّك.

- 3 -

ها قد مرّ شهران من الفراق. من الأفضل أن لا أعدّ، لأنّ ذلك يُرعبني. كان الثلج يسقط يَومَ الجمعة حينما كلّمته. إلى اليوم، ونحن في شهر ماي، لا يزال كل شيء أبيض.

وجد لي ابني انشغالا بالليل. بمجرّد أن يغمض عينيه، يبدأ في الصعود داخل سريره، ويصعد بالقدر الذي يستطيع. فينتهي به الأمر طبعا إلى ضرب رأسه مع الخشب. يستيقظ ويبدأ في الصراخ. يفعل ذلك عشرين مرّة في الليلة الواحدة، وعشرون مرّة أسحبه نحو الأسفل. حركة مكرّرة طوال الليل. ربّما يكون بحاجة إلى سرير كبير ؟ لا يكفيه سرير عملاق، ولن يُغيّر من الوضع شيئا. هكذا يطير عني النوم عند الثانية صباحا تقريبا، وينتهي كل شيء. وبعد ذلك أبقى طوال اليوم، أتقدّم كما لو أنّي وسط الضباب. لا أسرد هذه الحادثة من باب الشكوى، ابني في صحة جيّدة، ينمو بسرعة وأحبّه إلى حدّ العبادة. ستكون لديّ جميع هذه الأشياء أحكيها لصُلح، وأخرى كثيرة.

تجاوزت الساعة الثامنة مساءً بقليل. البيت غارق في الصمت وأنا هنا أنتظر مكالمة من صلح. يتنفس لكس في سريره بهدوء. في الخارج، هدأت الطيور. انفجرت الأرض خُضرة

في الأيام القليلة الأخيرة. إنها الآن بحاجة إلى أمطار. عند غروب الشمس، تتّخذ جذوع الصنوبر لونا أحمر فاقعا، يميل إلى البنفسجي. الأشجار جامدة إلى أبعد نقطة تمتد إليها الغابة. تُسلّم نفسَها لليل دون همسة واحدة، هذا الليل الذي يستحوذ قدومُه على القلوب أكثر مما يفرض نفسه على الأشياء.

تشير الساعة إلى العاشرة والربع. كلّمَتْني أمّي مِن بيتها في المدينة لتخبرني أنّ شخصا هاتَف من الخارج. صُلح ... ما أروعه ! كعَهدي به دائما، لا يكترث بالمسائل العملية. يا إلهي ما أبلد هذا الموقف ! كنت أعتقد أنه سجّل رقم هاتف هذا البيت الريفي. يا صلح، أقبّلك مرة أخرى على أذنيك التي لا تسمع إلا ما تريد. أفترض أنّك مستاء في هذه الدقيقة، وأنا أسخر منك. ألف عذر، الإغراء عصي المقاومة.

كم أرغب في سماع صوته ؟ انفجرت فقّاعة الأمل الرائعة. بوف ! لا أعرف إن كنت سأضحك أم أبكي من هذا الأمر.

انتهيت من إرضاع لكس. ينام من جديد. يصعد تنفسه الصغير من السرير مثل دخان هادئ. تصوّر يا صلح، إنّي سعيدة.

أحبّك يا صلح، حتى بعد ليلة بلا نوم، حتى بذهن مشوّش. الجوّ جميل، أبرد بقليل من نهار أمس. ننتظر المطر دائما.

دوما، نحن في انتظار شيء ما.

طالت إجراءات شراء منزلنا بفرنسا. وهذا يُربك خطّطنا نوعا ما. إنها مسألة تواريخ. يجب على أوليغ إمضاء العقد يوم 1 جوان، كما عليه أيضا أن يتواجد هنا لحضور حفل تعميد لكس. إن ركام الأوراق هذا مضجر للغاية. يطول، يطول. لم يعد باستطاعتي تصوّر متى ستنطلق أعمال تهيئة البيت من أجل استقرارنا هناك. ربّما سيمر الصيف قبل أن نتمكن من فعل شيء. مسكين أوليغ الموجود في عين المكان، يقرّر بمفرده كل شيء دون أن يجد أحدا يقاسمه همومه.

عادت إليّ نشوة الحياة حينما قرأت تواريخ رسائل صلح التي وصلت هذا الصباح. منذ يومين فقط، كنت منهارة كما لو أنني ارتكبت معصية.

وصلني أوّلا الكتاب الذي أرسله يوم 12 ماي، متقدّما الرسائل. تلقّيت إذا هذا الكتاب بعد صمت طويل من قبله، دون كلمة شرح. كانت الرسالة واضحة : يريد قطع علاقتنا ولكنه يبعث إليّ بشهادة حبه بحكم طبعه الودود. هكذا تغلّب عنده فعل العقل والذي لا يدل إلا على شيء واحد، قوة طبعه.

لو يعرف كم تأملّت كتابته على الغلاف في تلك اللحظة ! كانت هي الرسالة. وتساءلت إنْ كنتُ حقا أرى تلك الكتابة العزيزة لآخر مرّة. ولا داعي لإزعاجه ثانية : احتراما للقرار الذي بدا لي أنه اتّخذه، اكتفيت فقط بشكره على إرسال الكتاب ببعث بطاقة بريدية (**خطيبة الذئب**، حسب لوحة لسيمْبَرْغ).

ثمّ تلقيت رسائله.

أقضي أيامي مُردّدة اسمه. أنطلق باتجاهه، ثمّ أنسحب، كالموجة الزاحفة على الرمال.

في تلك الظهيرة التي عُدنا فيها من «إيبرناي»، عبر ذلك الطريق الذي قطفنا منه آخر أزهار الخريف في أوقات قريبة وبعيدة في آن واحد –لا، كان ذلك في وقت سابق، والسيارة تتدحرج عبر منحدر طويل، وكنا نرى إلى غاية أفق البلد البعيد، انبثق بداخلي أوّل بيت لقصيدة :

لنذهب، لنقتسم الصلصال والعناء...

لا غير. والبقية ؟ تبخّرت إلى الأبد. أجهدت نفسي في العثور عليها، دون نجاح. استرجعتها اليوم، ولكن ما الجدوى من قولها.

كلّما مرّ وقت أطول، كلما انتابني شعور بالخوف من الانفراد بك يا صلح. أخاف علينا نحن الاثنين. سألت نفسي، ممّا ؟ أعتقد أنّي وجدت : هل تتذكّر أشياءنا الخاصة ؟ يعتز كل منا بأشيائه الخاصة. إنها ثمينة جدا. ومع ذلك، يحدث أن أخترق حدود أشيائك الخاصة أكثر مما أريد. انجذاب سحري. لا أعرف كيف أشرح لك، شيء أقوى منّي. كنتَ تتسلى بالأمر، باندهاش كبير رغما عنك، تنظر إليّ، تبدو مندمجا في اللعبة. وفي كل مرّة، تتأثّر جوارحك أكثر مما تفكر، أو مما تريد الاعتراف به، أو إظهاره. تتأثّر بعمق، وأنا أستعد للاعتذار كما لو أنّي رأيت شيئا ليس للنظر.

أثناء الليل مثلا، حينما أكون ممدّدة إلى جانبك، أحسّ بتنفسك يختلط بتنفسي، فينتابني إحساس جامح للولوج داخل أفكارك، بحيث لا أرى إلا إياها، ولا أحسّ بعاطفة غير تلك التي تخفق في صدرك، ولا أكون إلا إياك. وهذا يرعبني. يصعب عليّ احتمال أن تتحوّل جولاتي في أماكنك الخاصة جدا إلى تدنيس. أرى بأنه يجب أحيانا معرفة خلق مسافة تفصل بيننا. أكبر قدر ممكن من المسافة.

وأقول في الآن نفسه : لا للهروب، لا للتراجع. ما هو الوجه الذي سأتّخذه إذا ؟ وجه أي كائن مجهول، أو معروف ؟ ولكنّي لا أريد أن أكون المتواطئة ولا الصورة المطابقة. أدير وجهي نَحوَك وليس إلى أي اتّجاه آخر. ها أنا واقفة على حافة هذا الكون.

فوق الطاولة، يتنفس جهاز الهاتف في الهواء الطلق. ولكنه لا يتكلّم.

يحطّ صندوق البريد نظرته على المنزل، ولكن هذه النظرة فارغة، غير مبالية. ومثلها رأسي فارغ أيضا. أيْن أنتَ يا صلح ؟

ينام لَكْس في الحديقة تحت النافذة.

لا يوجد بالبيت إلا أنا والشمس، وأشعر بألم في الحلق، ربّما تمزقني كل كلمة لا أستطيع نطقها. علّقت تميمتك على رقبتي، -الخرطوشة الصغيرة. أنتظر المعجزة التي ستخرج من أعماقها.

استيقظ لكس. ماذا كنت أريد قوله ؟ خرجَت الفكرة من ذهني. ربّما كانت هي الأساس.

هل سأفقدك مثلما فقدت هذا الشيء الذي كنْت بأمسِّ الحاجة إلى البوح به لك ؟ حينما نتأمل شجر البتولا، هناك في عمق الغابة، فكأننا نلمس الأخضر الصافي. إنه بداية الربيع. النور نفسه أصبح أخضر اللون. هل الكلمات التي خانتني مُنذ لحظات أضحت هي الأخرى بهذا اللون ؟

أنْ نختار بين الكلام والصمت، فلا يتغيّر شيء بالنسبة لنا. نقاطع أو لا نقاطع، لا يعني شيئا، القطيعة في مثل هذا الأمر غير موجودة. هل يفهم مقصدي ؟ وحينما يأتي اليوم الذي ينتقل فيه الكلام من جديد منه إليّ، فكأننا انتقلنا من البارحة إلى اليوم.

آه، لو كان بمقدوري أن أترك لخيالي عناية التكفل بابنيّ (لكْس وكذا أوليغ) وأذهب لأمنح نفسي لصُلح !

حطّت عصفورة جميلة على حافة النافذة. وبعد لحظة خاطفة حلّقت بعيدا. قلت : إنّه شبَحي، لقد طار ليلتحق به.

استمعت إلى صوته هذا الصباح. كان حزينا، هو، أمّا أنا، فكنت عُرضة انهيار داكن، ولم يمر التيار بيننا. كنت متفائلة في العهد الذي فارقته لأجيء هنا. تصوّرت أنّي أستطيع العودة في هذا الشهر بالذات، شهر ماي. أعود وألقي بنفسي بين ذراعيه. لم تجرِ الرياح مثلما اشتهت نفسي. حدثت الولادة، وكانت متوقّعة، أمَا العملية القيصرية فلم تكن كذلك. وبعد

ذلك، اضطر أوليغ إلى إرجاع شقتنا بعد شراء المنزل. ماذا كان بإمكانه أن يفعل بعد أنْ فسخ عقْد الكراء ؟ وها أنا محجوزة من هذه الناحية إلى غاية نهاية الأشغال التي ستجعل من منزلنا في مريكور فضاءً صالحا للسكن. ولكن متى ستأتي هذه النهاية ؟ ليست لديّ أدنى فكرة. يباغتني المستقبل دائما حينما يأتي، يفاجئني. ذهبت مرحة، غير عابئة بما سيأتي، ولم أرَ في الفراق إلا لحظة سيّئة نمرّ بها. والنتيجة...

اللحم والصوت

- 1 -

كان لكس رائعا بالأمس خلال تعميده، إلى النهاية. رائعا وهادئا ! نعم تعميده... كان الحفل جميلا، حزينا بعض الشيء.

وشهر جوان هذا. أين وكيف سنعيشه ؟ وكذا الشهور التي تليه ؟ ليست لديّ أية فكرة. طرحت السؤال على أوليغ. وكم كان يأسي وأنا أسمعه يقول لي أنّ الأشغال في منزلنا الجديد (في مريكور بفرنسا) سوف لن تنتهي إلا في الخريف، وفي انتظار ذلك يجب عليّ البقاء هنا مع الصغير. قلت له أنه يوجد حل آخر : أن نلتحق به إلى هناك في حوالي 10 أوت حينما سأنتهي من دروسي الصيفية، ونسكن في الفندق إن اقتضى الأمر. لم يعترض، لأنّه يعرف كم سيكون حضوري مفيدا له. سيرى إذا في عين المكان الشكل الذي ستتخذه الأمور. بدءًا لعب لنا منزلنا أدوارا سيئة...

لقد تغيّرت معاملاتنا اتّجاهَ بعضنا البعض. هكذا حينما وصل هذه المرة، لم نفكّر في تبادل القبلة عند نزوله من الطائرة. لم يَحدث شيء، ولو تلك القبلة التي نمنحها ونوزّعها عادة بكيفية آلية. وبدا لنا ذلك طبيعيا. كما لو أنّ اتفاقا مضمرا كان بيننا : كلّي عناية ولطف معه، وهو من جهته بذل أقصى جهوده كي يستجيب لتطلعاتي بلا ثرثرة زائدة؛ خاصة ما تعلّق باحترام قسطي من الفضاء. أمّا ما تعلّق بعلاقتنا الزوجية... تركّزت على الرضيع. أحيانا، أجد الأمر غريبا أن نكون نحن أولياءه.

في مكتب البريد، أنتظر المكالمة التي طلبتها مع صُلح. إنّي مُرهقة أكثر من أيّ وقت مضى. إرهاق بلا اسم. ربّما كان هلعا. قبل يومين أو ثلاثة، ذهبنا، أوليغ وأنا، لزيارة أصدقاء لهم ابن في السادسة من العمر. يُقيم الأبُ في الخارج والطفل الذي بدأ يتعلّم الكتابة بعث إليه الرسالة التالية : «بابا، عُد سريعا ! حينما لا تكون هنا، أصبح حزينا، ولا أرغب في اللعب». أنا مثله تماما، ليست لديّ رغبة في اللعب؛ ولا في الكلام، ولا في الحياة.

منذ قليل كلّمت صُلْح. وبكيت. أتمنى أنْ لا يلومَني. لم أكن أنتظر هذه البادرة مني. كنت هادئة قبل تلقي المكالمة. لا أعرف ماذا أصابني فجأة.

الجوّ رديء. مطر ورياح. لا نشعر أننا في فصل الصيف. اضطررت إلى ارتداء معطفي من أجل الخروج.

كلّمت صُلح للمرة الثانية. ولكن كان يجب أن أترك الهاتف، أن أتركه. لم يكن لديّ شيء خاص أقوله له، سوى مداعبته. لم أبكِ هذه المرّة. سيذهب إلى جبال الألب، إنه بحاجة إلى الراحة. أنا مسرورة لأجله. ولأجلي أيضا : لن تعذّبني كثيرا لهفة عودتي إلى مريكور. سيعود أوليغ نهار الغد؛ وقد نلتحق به، لكس وأنا، في أوت.

خذ راحتك يا حبيبي قبل أي شيء آخر. لا تفكّر فيّ.

الآن، تدوم الأيام طويلا في الليل. أم أنّ الليالي هي التي ترفض مفارقة الأيام، ومن أجل هذا تصبح شفافة جدا. أزهَر نبات الغُبَيْراء. ومع ذلك، البرد مستمر.

يزن لكس حوالي خمسة كيلوغراما. قبل قليل ولأوّل مرة، أكل الموز بملعقة صغيرة. كان يبتلع الكميات الصغيرة بسحنة جادة للغاية.

غدا، سأرى أوليغ يصعد إلى الطائرة التي ستقله إلى باريس بقلب منقبض. ولكنّي أريد... أريد قول شيء آخر. لم أعد أجد نفسي في أفكاري التي تبعثرها أدنى نَفْثَة. كما هذه الريح التي تطوي هبوبها الأشجار في الخارج. أبدا لم أحسّ أنّي غريبة في هذا العالم كما في هذه اللحظة، -وغير نافعة أيضا، وسيئة الحظ. كنت أتصوّر أنّ ولادة الطفل ستغيّر من حياتي شيئا ما. ولكن شيئا من هذا لم يحدث. بدأت أنسى أنه من لحمي ودمي كلّما كبر قليلا. أحبّه مثلما نحبّ حيوانا رَخْصا صغيرا، هشا وبلا حماية. أمّا أنْ أشعر بحياتَينا تلتحمان كما في البداية،

فلا، انتهى هذا الإحساس. حينذاك، كنا نشكّل عجينا واحدا، لم نكن إلا ذاك العجين. في تلك الفترة، كان الوضع جديدا بالنسبة لي، وكان يُغرقني في هاوية من الدهشة والارتباك. مستجدات كثيرة أعادت الأمور إلى مجراها الطبيعي : وصول أوليغ، اهتماماتي خارج البيت، الوقت الذي يمرّ ولن نلحق به. ربّما لأنّ لكس أصبح يُظهر استقلاله، خاصة بالصراخ الحاد، والحاسم فجأة. أصبح شخصا آخر.

أفارقك يا صلح، ولكن لا تتركني أختفي عن أفكارك.

لم أفارقك. لم أتوقف لحظة واحدة عن الحديث إليك، ولا زلت أحدّثك. أنا في المطار. جئت أرافق أوليغ الذي سيقل الطائرة بعد دقائق قليلة. سيكون في باريس على الثامنة مساءً. إلهي، يا لبساطة الأمر ! لماذا أجبَر على البقاء هنا، أنا التي أملك أشياء كثيرة أريد قولها لك، الإتيان بها إليك ؟ السماء زرقاء. زرقة ساطعة. نقترب من عيد القديس يوحنا. أغمض عينيّ على هذه السماء. لا توجد حلول أخرى.

رسالة من صلح، هذا الخميس 10 جوان، على الحادية عشر والنصف. مُؤرّخة يوم الاثنين. شكرا للراحة التي أحدثَتْها في نفسي.

أفكر ثانية في شقّتنا الفرنسية، تلك القديمة، أرى نفسي بداخلها. الستائر : في واقع الحال لا أرى إلاّ ها. أما الشيء الباقي المحيط، فقد انمحى، إنه بلا أية فائدة. كم مرّة ترقبت وصولك، ثمّ دخولك إلى العمارة، من أعلى الطوابق وخلف تلك

الستائر. وأنا بداخل هذه الغرف الثلاث، كان دوما ينتابني إحساس بأنّي في اللامكان، -أنا وما القول عن صُلح ! ومع ذلك ستمثّل لحظة من حياتنا برغم أنها ستتوقف عن إيوائنا ابتداء من الخامس عشر من الشهر تدقيقا.

زرعْت أزهارا أسمِّيها **عيون لكس**، لي فقط، نوع من التفكير. بدأت تنبت. سأبعث بواحدة لصلح. أو بالأحرى اثنتان : واحدة لكل عين.

إنّ ما كتبه لي مزّق قلبي. قال بأنه لم يعد يتذكّر نبرة صوتي. لم يتعرّف عليّ في الهاتف. إلهي، أتمنى أن لا يحدث هذا أبدا، أن لا ينسى. إنه الرابط الحي الوحيد بيننا، وفوق هذا يتسم بهشاشة كبيرة.

أنتظر اليومَ الذي أكون بين ذراعيه، أنتظره إلى حدّ أصبحت أحسّبأوجاع في كامل جسدي. عيد القديس يوحنا على الأبواب وقلبي يتدفّق بالذكريات. في الصيف الماضي عشت سعادة لا حدّ لها، أما هذا الصيف...

يكفي، يجب استئناف عملي. ابتداءً من الآن، سيكون الشك الوحيد الذي سأبيحه هو شك النتيجة.

بعد ذهاب الزَرْزور، استخلفه الخُطُّف. تَقتَرب مرحلة الصيفِ الأولى من نهايتها، وأنا أمدّ ذراعيّ نحو صلح.

اليوم في المدينة، بدا لي جسدي الماشي أكثر خفة من الهواء الذي يطفو بداخله وشاحي. غناءٌ مجهول ومرح يرافق طقطقات

عقبيّ. فلم أقاوم رغبة شراء باقة من زنبق الوادي. واصلت طريقي فوقعت على صديق وأنا مفعمة بابتهاج امتلاك تلك الأزهار.

قلت له : «خُذْ» وأهديته إياها.

هو، لم يعرف كيف يجيب على فعلي، فبدأ يدور في عين المكان، الباقة في يد، ورأسه في الأخرى. فذهبت، يغمرني إحساس بأنّي سأطير في التوّ.

قبل قليل، كنت أستمع إلى صلح يتكلم في الهاتف وأفكر : نُتقِن فن لمس بعضنا البعض عن بعد. يتعرّف العميان على الأشياء بقرون أصابعهم. إنَّنا مِثلهم، ولكننا نفعل ذلك بقرون كلامنا. أنا متأكّدة أنّي أدركت نظرته، وتعرّفت على ملامح تعبيره. كما استمعت أيضا إلى خفقان قلبه. حدَث كل هذا عبر صوته فقط. يمكن للصوت أن يعوِّض اللحم، أن يتحوّل إلى لحم حينما تخوننا الحواس الأخرى. والصوت لا يخون.

البرد من جديد. وهذه الريح البشعة. هاجت الغابة، انتفشت. اليوم أرسلت لك يا صلحي صورة لنا نحن الاثنين، لكس وأنا. أُخذت هذا الصباح، مباشرة بعد الرضاعة الأولى. كنا مرهقَين.

وصل عيد القديس يوحنا. ينتابني هلع عصي الوصف. وعدت إيرو وتولي أنّي بهذه المناسبة سأذهب عندهما في جزيرة «فيلجالا». قالت تولي أنّي الشعلة التي ستشعل عيدهم. ولكنّي أعرف أني سوف لن أذهب. إنّي في اتصال ذهني مستمر مع صلح بحيث يكون فوق طاقتي مواجهة غيابه

المباغت. سنكون معا ذات يوم، بداخلي إيمان عميق. وإلاّ بمَ سنؤمن إذا ؟

يسقط المطر، البرد قارص.

قبل عام، بالتمام والكمال، وفي هذه الساعة بالذات، كنا جالسيَن الواحد إزاء الآخر داخل الحافلة التي كانت تقودنا باتجاه قدرنا. كانت الشمس لامعة، لاهبة. اليوم، يسقط المطر بلا انقطاع. الجوّ بارد. تتضامن الطبيعة معنا.

أعيش على الخوف الدائم من طائر القُرْقُف. إنه أليف بشكل مفرط. تدخل هذه الطيور الجريئة البيوتَ بمجرّد رؤيتها لنافذة مفتوحة، ولا تتوقف عن الدوران داخل الغرف. وهذا يرعبني. يملأني هلعا. يرتعد جسدي لمدّة طويلة. وأمّي مثلي تقريبا. لا نكاد نجرؤ على فتح النوافذ ولو قليلا، فنختنق داخل الغُرف. ذلك أننا نواصل إشعال المدفأة بسبب الرطوبة والبرد. نمكث لساعات طويلة خلف الزجاج ننظر إلى هذه الطيور القبيحة وهي تحلّق في الفضاء، مترقبة فُرجة ما. وتقوم دون كلل بدوران حول المنزل لتتأكّد إن لم تكن هناك بعض الفُرج لتتمكن من التسلل عبرها. عادة ما تتسلل أولا إلى الصالون الذي ننسى بانتظام دفع مصراع أو آخر إلى أن يُغلق جيدا. حينئذ، تترك بطاقات زيارة صغيرة في كل مكان. في المطبخ، تأكل كل شيء، كل ما تجده فوق الطاولة : بطاطا، جبن، طماطم، زبدة. مع أنّنا لسنا في الفصل الرديء، إذ يوجد الذباب والديدان بوفرة في الخارج. لديها ما تتغذّى به.

- 2 -

تقترب اللحظة. أين ذهبَت ؟ تخونني ذاكرتي أحيانا. اللحظة التي تبادلنا فيها القبلة لأول مرة. كان ذلك أمام البحر. قادني صُلح من يدي إلى صخور الشاطئ. كما لو كان يريد للبحر أن يكون شاهدا على حبنا. لم يقل بأنّه كان غارقا في حبّي. لا، هذا لا يشبهه؛ كان يبتسم هادئا. أما أنا فكان قلبي كالمجنون يخفق بعنف أقرب إلى التوحّش. كان سينفجر فُتاتا. خاطبت نفسي : «قبلت هذه النزهة، لماذا ؟». أما هو فهمس الكلمات بنبرة هادئة : «الكلّ أو لا شيء». هذه الكلمات. هذه الكلمات نفسها؛ كلمات مخيفة، ولكن أقل من التحفظ الذي نطقها به. أصابَني هلعٌ، صرخْت كي يأتي أحد لإنقاذي، ولكن لا صوت يخرج من صدري. الأسوأ أنّ شيئا انفصل عن ذاتي راغبا في الخضوع، لأن يُؤخذَ فورا. الأسوأ؛ الأغرب.

أظن بأنّي كنت سأكتفي، مع شخص آخر غير صلح، بضمّة خفيفة، وكان هذا «الكل» سيُتخلّص منه بسرعة، سيتحوّل إلى «لا شيء». ألم يكن هو أيضا قد تفاجأ مثلي بالكلمات التي نطق بها في تلك اللحظة ؟ ربّما تكون قد مزّقت قلبه مثلما فعلت معي. وقفنا أمام البحر الملغز، يغمرنا يقين : ذلك الذي سنَعبُره معا مثلما استطعنا، وجميع الجسور مهدّمة. معا، وبمساعدة الحظ، سيُفرحنا أكثر مما سيضرّنا. إنّ القدر بقدر ما يُرعب فإنه يُبهر أيضا.

استيقظ لكس ليتلقى قسطه من عصيدة زهر النِسرين. يجزّ أبي عشب الساحة في هدير لا يطاق. إنه الصباح العظيم، الشمس العظيمة هناك في جزيرة فيلجالا، قبل عام وفي مثل هذه الساعة. كان قلبك يهرب منك، يا صلح. لم أسمع في حياتي قلبا يهدر بهذه القوة مثل قلبك. ولم يتغيّر الحال. ولكن في ذلك اليوم، بدا كما لو أنه أراد فعلا أن يهرب من صدرك. كان يجيب قلبي بكل ما يعرف. ومع ذلك، انتابني خوف شنيع : أنْ تُصاب بضربة شمس. لم أجرؤ على التحرّك. بدا لي كما لو أنك ذهبت وتركت لي جَسدَك أحرسه، مع ثقل القلب الكبير.

يا لها من مسؤولية ! فيما سيبدو لي عاديا ومرحا ذلك الذي سيحدث في الغابة بعد لحظات. سأنسى مخاوفي وأنا أتقدّم نحو الطاولة التي ينتظرني حولها أصدقائي، وسوف لن أرتعد إلا سعادة. فجأة، لم يعد العهد الذي قطعناه على نفسينا يزن بثقله المعهود. وهذه الكمية من إبر الصنوبر المرشوقة في سَرْدك الصوفي من نوع «البلّوفر» !

ها قد استيقظ لَكْس.

الثانية زوالا. اتّخذت قراري : سوف لن أذهب إلى فيلجالا. إن عيد القديس يوحنا هذا ليس عيدنا. بدا لي أنّ عددا كبيرا قد قرّر عدم الحضور. يا له من جوّ بارد ! أعلنت مصلحة الأرصاد الجوّية أن المطر سيُواصل السقوط لأسبوع كامل على الأقل. ألا يساوي الحلم –وهذا حلم عشته– أفضل من أي

شيء ؟ لنبقي جماله وبريقه خارج أي لوثة. وأين سنحميه إنْ لم يكن داخل قلوبنا ؟ هل يمكنني أن أراك في حلمي هذه الليلة يا صُلْحي ؟

- 3 -

الرابعة صباحا. بدأت جذوع الصنوبر تلمع. الغابة مبلّلة، ومع ذلك مشعّة.

تأَمّلتُ هذا المنظر مرات عديدة وأنا أداعب وجه صُلح الغائب. أداعبه الآن بأصابعي، هو الغائب؛ وبعد ذلك بشفتيّ، أُغمض عينيه. نَمْ هنيئا، أنا ساهرة بجانبك.

الثامنة صباحا، تسبح الحديقة داخل الشمس. ذهب لكس في نزهة مع والديّ بداخل عربة اللاندو الصغيرة. أنا وحيدة بالبيت. أنتظر مكالمة من أوليغ.

أنا الآن في الحديقة، أرضع لكس. يا لها من سعادة ! أنْ تتنفس الروائح المتدفقة من الغابة الصيفية، وتمسك في الآن نفسه كائنا صغيرا مثله بين ذراعيك، وتغمره بطاقة تنبعث من عمقك. كيف نسمّي هذه الحالة : فيض من السكينة ؟ ليس من السهل دائما أن نعثر على تسمية لكل ما نريد قوله.

التاسعة مساءً. هاتَف لي صلح. يا له من ابتهاج... ويا له من سوء حظ أيضا. يوجد جهاز الهاتف بالصالون حيث كان والديّ يتناولان الشاي مع جارنا الدهّان. أَنْهَى هذا الأخير عمله فوق سقف المنزل ودعاه أبي ليدخل لحظة إلى الصالون.

كيف أكلّم صُلحْ في تلك الظروف ؟ كيفَ أبقى طبيعية فيما التزم ثلاثتهم الصمت كي لا يشوّشوا على حديثي مع أجنبي، يكلّم من بعيد ؟ مُستحيل ! أُصِبت بشلل، وكلما طال الحديث، كلما ساء الوضع. في الطرف الآخر من الخيط، كان صُلح بدوره يائسا. كنت أرى ذلك بعينيّ. لم يفهم شيئا. كنت أشقى منه. قبل قليل، كان البيت فارغا، والدهّان فوق السقف. ثمّ فجأة، ها هم الثلاثة مجتمعون. تلعثمتُ، فقدت السيطرة على نفسي. لم أعِ جيدا ما كنت أتلفّظ به من كلمات.

كم تأسفت وحزنت لأنّي لم أعرف كيف ألقاك، يا صلح. عليّ أن أعترف بكل شيء لوالديّ. أمامك شخص أخفق في إخفاء جزء من حياته، أو أي شيء آخر، وعاجز عن الإحساس بالألم (أو بالذنب) لأنّ علاقاته بأقربائه لا تحمل طابع الصراحة الكاملة.

إنهم في الخارج الآن يسقون الحديقة، وأنا جالسة وحيدة، مكروبة، بقرب الهاتف.

في صبيحة الغد، وجدت نفسي غارقة في انهيار مرعب. يشدّني إلى غاية أطراف شعري. ومع ذلك، استأنفت العمل.

الجوّ جميل، رائع، ومع ذلك كنت أتوجّع، أتوجّع، أتوجّع. بئيسة أنا.

بعد طيور القرقُف، ها هي الزنابير تحتل الغرف الآن. لا تهْجم علينا خارج البيت، ولكن طنينها يزعجنا.

- 4 -

أخيرا جاءت الحرارة. بخار خفيف يضبّب السماء. يبدأ الهواء في الارتجاج حينما يتذكّر. ولكنه لا يتحرّك في أغلب الوقت، يبقى جامدا في كتلة كبيرة من الروائح العائمة على الحديقة. ينام لَكْس عاريا تحت ظل الأشجار. يحيطه ذباب كثير، ربّما بسبب رائحة الحليب القوية التي تنبعث منه.

احتفل السكان بعيد القديس يوحنا خلال الليل، ليلة لم تغرب فيها الشمس. بدا الحي راكدا، لا مارّة، ولا سيارات. يستريح أبي وأمي في قيلولة هادئة. من لحظة إلى أخرى، يشقّ طائر الخطّف كتلة الهواء وهو يطلق صرخات حادة. في الحديقة، عندنا عشان للخطّف.

كان لكس عصبيا طوال اليوم. بكى كثيرا. ربّما بسببي، أنا التي لا زلت ألوم نفسي على إفشال مكالمتي مع صُلح. يُضاف إلى مرارتي الندم الذي نغّص يومي.

في نهاية الظهيرة، بدأ لكس يصرخ بجدّ. صَعب عليّ تنويمه. أخذته بين ذراعيّ وخرجت بغرض تهدئته. ضممته إلى صدري وتجوّلنا عبر الغابة. بعد لحظات، تحسّنت حالتنا، نحن الاثنين.

إنها أول جولة له داخل الغابة. احتفلنا بعيد القديس يوحنا على طريقتنا الخاصة. أليْسَ الأهمُ في هذا الحفل أن نتواصل مع الطبيعة ؟ من حسن حظي أنّي أخذت على عاتقي عدم

الذهاب إلى فيلجالا. لا أرى نفسي في أحسن حال وسطهم في الوضعية التي أنا فيها.

نحن سعداء اليوم لأنّ الحرارة ارتفعت إلى غاية العشرين درجة. مع ريح خفيفة، هذا ما نريده فقط. بغتة نزل علينا الصيف. لقد انتظرناه طويلا. بقي لي أن أذهب إلى غاية مدينة كيفنلينا لإعطاء دروسي.

أَتّفق مَعك يا صلح بأننا تجاوزنا آخر حدود الصبر. ومع ذلك عَلينا أن نتحلى بقليل من الصبر الإضافي. ليسَت لديّ الشجاعةُ الكافية لتصوّر الأضرار التي ستحدثها، أو قد أحدثتها، هذه المراحل التي أُجبرنا على عبورها قبل أن نلتقي الواحد أمام الآخر. إنّ أفكاري المرعبة ليست إلا طيورا هاربة.

خيّم المساء. تقتَرب اللحظةُ التي لا أحَد سيَعرف فيها أين أنا. حيث لا أحَد ينتظِر شيئا من هذه المرأة. ربّما سأتوقف حينئذ عن التفكير في الموت. بقلبي سكنَ توق متضاد : أن يكون عندي مأوى وبلد ونادي أصدقاء مستعدون لأن يقولوا لي أين أنا، وأكون في الوقت ذاته قادرة على دفعهم بعيدا عنّي، وإلا سوف يدفعونني – أنا متيقنة– نحو الموت. أجتَرُّ جميعَ هذه الأفكار داخل حوض الحمام، مكان راحتي الوحيد.

في المساء، من أجل النوم، أرتدي القميص الذي نمت به مع صلح. أثناء النهار، ألبس قميص «التي–شورت» الأبيض والأسود، –الشبيه بالذي أهديته إياه. وإذا كان الجوّ حارا، أحرس على رؤية نَفْسي في فستان الأمومة الأزرق الذي يعرفه

جيدا. وحينما أذهب إلى المدينة، ألبس تماما كما أيام فندق أكاديمكا. أتعطّر بالرائحة نفسها، وأنتعل الحذاء نفسه أيضا. هكذا، أحسّ أنّي ملفوفة في جزء من نظرته. أؤمن بفضائل العلاقات التي نقيمها مع الأشياء، على أن تكون حقيقية. إنّ السرير الذي اكتشفت تحته، وأنا طفلة، بأنّ الربّ رائحةٌ بصيرة، أصبح شيئا مقدّسا – أقدَس من أيقونة.

ينتهي شهر جوان هذا، في صمت.

في نهاية المطاف، أحبّ هذا الصمت جيدا. كما لو أننا ننام، صلح وأنا، ظهر مقابل ظهر. أعرف أنّه يسمعني، حتى وإنْ سلكت كلماتي الاتجاه المعاكس.

إن السماء حوض من الأزرق السائل. ترقص الثياب على الحبل، بين الصنوبر والبتولا. أعتقد أنّ الصمت الداخلي والإرهاق مرتبطان أشد الارتباط، ولكنّي لم أتمكّن من معرفة أيهما يتسبّب في الثاني. ها قد أزهرت نبتة الخشخاش. بهيئة ملكية. سوف لن تدوم أكثَر من ساعات قليلة بالنظر إلى الريح المزمجرة اليوم. أحسّ بنوع من الراحة النفسية لأنّي لست ملزمة بأن أكتب إلى صُلْح، أكتب كما تحت أمر، في لحظة محدّدة، وأنا أفكر بأنّ الرسالة ستصله بعد يومين. لا يمكنني تجنّب العصبية في هذه الحالة. أخشَى دائما أن يكون ردُّه بدافع مزاج مباغت. يستمد وسيلة عمله من عمق ذاته، مثلما هي، وأخْشى أنْ أقومَ بزَلّة قاصمة. ربّما هنا مربط الفرس. أحيانا، ينكمش على نفسه، ولا يزعم أحد أنه قادر على فكّ لسانه. لا يبوح

بأسراره من تلقاء نفسه. إنّي لا أعرف منه إلا ما أحسّ به فقط. وهذا في حدّ ذاته لا يُزعجني. لقد تعوّدت على الحوار مع صُلح خارج الكلام، خارج الزمن. يأتيني الجواب أحيانا قبل السؤال. على كل حال، لا توجد أسئلة أكثر من الأجوبة. لذلك فعليه أن لا يأخذ بعين الجدّ الأسئلة التي أطرحها عليه. حينما أطرح الأسئلة، ليس لمعرفة الأجوبة، بقدر ما هي عادة نسلكها، كمن يضع يده داخل جيبه لكي تكون في مكان ما.

إنه قلق بأن لا أكون هناك، إلى جانبه، وأنا أبكي من الشجن. لا يرى كم أتعب من أجله، كم أضحّي من أجله. أتألّم إلى حدّ الموت من هذا الصمم الذي يناسبه تماما.

مرّ أبي قبل قليل. كنت جالسة على العشب. انحنى ودغدغ عقبيّ. لا نتبادل القبل أبدا. كانت من جهته علامة عطف جميلة، خاصة أنه يجد صعوبة في الانحناء.

مساء أمس ذهبت عند مايجا-لينا، إنها حفلتها. أتساءل إنْ لم أتغيّر بعد أن أصبحت أمّا. ما هو الوجه الذي يجده الآخرون فيّ ؟ لقد اعترض طريقي في الشارع أكثر من شخص : أوّلهم سكّيرٌ يَتسوّل قليلا من النقود، ثمّ متحمّسة تقوم بالدعاية لطائفتها، وبعد ذلك مخدّر شاب أراد إرسالي إلى صيدلية أشتري له شيئا ما، وأخيرا ثلاثة أشخاص مخمورون وقليلو الأدب. ومع ذلك انتفض أحدهم لرفض البذاءات التي كان أصدقاؤه يقذفونها اتجاهي. قال لهم : «تَوقَّفوا، أغلقوا أفواهكم. ألا ترون بأنها لطيفة ؟»

ربما يكون نور يتدفق من قلبي ويصعد إلى وجهي هو الذي يميّزني عن الجميع وسط الحشد. أظن بأنّ هذا هو الذي يجذب نحوي هذه الكائنات الليلية.

هكذا وصلت متأخّرة عند مايجا-لينا. لم يكن لهذا التأخّر أثر يُذكَر. لا نعطي أهمية لهذه الشكليات، لا هي ولا أنا. كان يوجد هناك فارس أحلامها. مُباشرة وضعت أقراص الموسيقى وبدأنا تناول الشاي. كانت الطاولة غاصة بتلك الأشياء اللذيذة للقضم. حفل حقيقي !

فجأة رنّ جرس الباب. دخل أخوها «آصكو» وأخبرنا بفجاجة بموت ابنه صاحب الأربع سنوات، والذي أعرفه. لقد هدّه سرطان الدم. كنا جميعا نتوقّع هذه الوفاة. يوجد الطفل بالمستشفى مُنذ شهورٍ عديدة. سَرَت قشعريرةٌ في جسدي وأنا أسمع الأبَ يُعلن خبرَ وفاة ابنه. «ربِّي، إحفظ لكس ابني !» إنّ الخوف الذي خرق لحمي بقوة سهم حديدي جعلني أدعو الربّ من كامل كياني، وبقيَت صورة الطفل الضامر، الشاحب كحبة ليمون، ماثلة أمام بصري. في آخر مرّة رأيته فيها لم يكن يملك قوة المشي، ولا النهوض، ولا حتى الجلوس. إنْ لم يكن يطلق زفرات حادة خافتة، فكان يغفو على سرير مايجا-لينا، بوجه شفاف ونظرة ذابلة. في ذلك اليوم، كان أطفال آخرون حوله : هُم يلعبون، وهو يمصّ الحلوى واللعاب يسيل على ذقنه. لم يكن يضحك، كما أنه لم يكن يبكي أبدا. ورغم هذه الحالة، كانت

عيناه باستمرار عائمتَين بالدموع. صرّح أبوه أنّ وجه ابنه داخل التابوت كان أقرب إلى وجه راشد.

بقي ثلاثتنا، آصكو، أخته مايجا-لينا وأنا، مرتبطين بعاطفة قوية، وحّدتنا روابط ألعاب الطفولة العصية التعويض، والتي يستحيل إقامتها من بعد مع الآخرين. ومع ذلك، أحسسنا بارتباك مزعج. هذا موت حقيقي. تأملت الأب، يتيم الابن، ودون وعي منّي، وجدت نفسي أنظر تباعا إلى كلب صديقتي، بُلدُغ مدلّل، ثمّ إلى رسم السجادة، وأخيرا إلى الشاي المتدفق في كوبي.

لا أتذكّر كيف خفّ الجوّ وارتخى. من تلقاء نفسه. كنّا مجتمعين في منزل طفولتنا –هذا ما تمثله هذه العمارة المهيبة– فبدأنا نستذكر أحداثها، الواحدة بعد الأخرى. جرّنا الحديث إلى استحضار أطباق أكَلاتنا السابقة. كانت الظروف صعبة آنذاك. لا فواكه، ولا حلويات بالوفرة مثل اليوم. ببَساطة : كنا نحرق السكر في المقلاة كي نصنع المُصّاصات. كانت كل فاكهة نذوق طعمها تؤشّر على مرحلة من مراحل حياتنا الفتية. كان يبدو لنا أننا نقضم الحياة بملء أشداقنا، مثل أو أكثر مما كنا نفعل مع الفاكهة النادرة التي تقع بين أيدينا. تلك الفاكهة التي لم نكن نأكلها قبل أن نبحث في الأطلس عن بلدها الأصلي. إذا تعلّق الأمر ببرتقالة مثلا، نتشبّع أولا برائحتها، ثمّ ندعو أصدقاءنا إلى تأملها، وكانوا من حسن الخلق إلى حدّ أنهم ينسحبون دائما قبل اللحظة التي نقرّر أكلها. في المقابل، لم يحدث أن

تقاسمنا فاكهة مع عائلتنا، وبقي هذا الأمر إلى يومنا هذا مثل قانون غير مكتوب.

كان طبقنا المفضّل، لآصكو و مايجا-لينا وأنا، وبالصدفة طبق يوم الخميس. في ذلك اليوم، حصّة في الإذاعة -أما التلفزيون فلا حديث عنه، كان شيئا نادرا في ذلك العهد- خاصة بالأطفال : حكايات العمّ ماكوس، القصص العجيبة، صندوق الرسائل، وأشياء أخرى كثيرة. الغريب في الأمر أن ثلاثتنا تذكّروا الشيء نفسه. كان يُسمح لنا أن نأكل والمذياع لاصق بالأذن، برغم التشويش المزعج. يتمثل طبق الخميس المشهور، وهو نفسه في كل مكان، في حساء الجُلبان. ما ألذّ ذلك الحساء، المُرفَق بأرغفة وحليب رائب ! وإذا ساعدنا الحظ في امتلاك قليل من الزبدة، ستكون سعادتنا كاملة. تصوّروا، كنت أملك زُبديَتي الشخصية. مُنحَت لي لأنّي كنت أزعج محيطي بالذهاب والإياب لأجدّد كمية زبدتي كلّما ذابت، وكانت تلك التنقلات تحدث فوضى عارمة. كنت أشوّش على الجميع وأمنعهم من متابعة الحصة الإذاعية، زيادة إلى أنّي كنت أحدث حفرا في الزبدة بمغرفة ملطّخة بالحساء. انتهى بهم الأمر إلى تخصيص تلك الزُبدية لي دون غيري. لمدة طويلة، بدا لي أنّي تلقيت تربية قاسية. ولكنّي وبعد تفكير سليم، اقتنعت أنّ عائلتي كانت متفهّمة معي أكثر مما أردت إقناع نفسي.

أغمضَ كائنٌ صغير عينَيه مُنذ قليل، ونحن نتحدّث عن ذكريات بعيدة. ربّما كانت هذه الحكايات في نهاية المطاف مع

الجوّ الذي استطعنا خلقه حواليْه أريَح للأب من غيرها؛ لست أعرف.

إنّك الآن تَعرفين اسمَك الحقيقي، ولكن اشْششت... يَجب أَنْ يبقى هذا الاسم سرا، ولا يُستعمَل إلا بين أربعة جدران، بيني وبينك فقط. دون أنْ نعرف، قد نتعامل في حياتنا مع أشخاص هم في الأصل بهائم في طور التحوّل إلى بشر. ومع ذلك هل نعي بأننا غالبا ما نلتقي بهائم هم في الأصل بشر في طور استرجاع طبيعتهم البهيمية ؟ إنّك تسترجعين طبيعتك الحقيقية، طبيعتك الذئبية. اسمكِ «ذئبة». ولكن اشْششت...

أما بالنسبة لصلح، فقد سبق وأنْ استرجَع طبيعته. لم تتعرّفي عليه بعد. كان ذئبا. وقد دُفع بعيدا عنك. فنسي وضعه واسمه. يمكنهما البقاء هكذا إلى الأبد. وأثناء هذا الوقت، تتقدّم البهيمة نحونا متخفية تحت حجاب عروسة. تتقدّم، وهي تستعد لضغط جوع بشري ضد صدرك.

لا ينبغي لأحد أن يعرف هذا الأمر. لا ينبغي، لا، لا ينبغي. بأي ثمن.

«لكنّه هل يعرف، هو، صلح-الذئب ؟»

تقصدين، هل يعرف بأنك تعرفين الآن، تقصدين، اسمك الحقيقي، واسمه الحقيقَي ؟

«لقد بعثتِ إليه بطاقة بالأمس القريب، عليها اللوحة المنسوخة : **خطَيبة الذئب**».

بعثتِ إليه هذه البطاقة. سيفهم قصدك. لا يمكنه أن لا يفهمَ.

نحرسك منه. غادري الآن أولئك الذين يحرسونك. تعقّبي أثره، واذهبي حيث يريد أخذك.

إذْ لا جحيم

- 1 -

أجازف أحيانا بتخيّل جوّ لقائنا، صلح وأنا، لدى عودتي. كيف سيكون ؟ أكيد أنه مختلف عمّا ينتظره كل واحد منا. للأسَف الشديد ليس اللقاء لنهار الغد.

اليوم على طاولة الأكل، تحدّثت مع والديّ حول أشياء وأخرى. في لحظة ما، عبّرت عن أسفي أنّ عينيْ لكس ليستا باللون البُني.

صرخ أبي : «ماذا تقولين ؟ كما العرب أو اليَهود ؟»

كيف لأبي أن يتلفّظ بمثل هذه الأقوال ؟ آه لو تعرف يا صلح كم تألّمت ؟ **يهود، عرب ؟ هل يجب عليك سماع هذا الصوت ؟ أن تأخذ على حسابك هذه الإهانة الدموية، ثمّ تحوّلها إلى حقد، إلى ألم ؟ صوت العنف، أو صوت يحكي العنف الذي نقاسيه، إنه صوت واحد. صاعد، نازل، في كل مكان، في كل يوم. عند أوّل جور يُرتكب، تجيب من**

داخل ذاكرتك صرخة مُدوّية حتى وإنْ لم يتذكّره أي جحيم، حتى وإن كان محتملا فقط. أغفر له، صُلْحي.

بعد أيام قليلة، سأكون في كيفنْلينا، مع أوليغ ولكس. إنها فرصة لي للابتعاد قليلا عن والديّ.

ستقرّبني هذه المسافة منك يا صلح، برغم أنها ستضاعف البعد بيننا.

- 2 -

اليوم، أهبط عبر شارعنا، شارع فُنْدق أكاديمِكا. إنه يوم الأحد. اسمه الحقيقي : «هيتانيمنكارو»، شارع شبه جزيرة الرمل. ولكنه بالنسبة لي يبقى شارع فُنْدق أكاديمِكا ولن يتغيّر، لأنه شارع قدري. أنْ تلقَى قدرَك عند بابك –يقَع منزل والديّ على بعد خطوتين من هناك– شيء غير عادٍ، يجب الاعتراف بهذا. وقد بعث في نفسي تفكيرا متواصلا وإلى اليوم... في هذه اللحظة إذا، تطأ قدمايّ سجادة خرافة، وليست أرضا عادية. لا يبدو لي أنّ قدميّ تلمَسان أرضا. إنّي أحلّق، خفيفة كما الريشة، متحررة من كل قيد. تهزّ النسمة المنعشة الصاعدة من البحر القريب شعري ونهديّ.

نعم. مِن هذا الشارع، وفي مثل هذا اليوم وهذه الساعة، قبل عام بالتمام والكمال، بدأت أحلّق نحو المغامرة، نحو المجهول. نَحو المغامرة ؟ شيء آخر قد يبدو غريبا : إنّي واثقة. نحو قدري، هذا هو الصواب. في المقابل، تبقى صفة المجهول قائمة، وهي تكتسي هناك ملامح وجه، وجه صُلْح.

ها هو محل الفطائر القديم الذي تحوّل الآن إلى مدرسة لتعليم السياقة، وبعده مركز محافظة الشرطة، المخيف دوما. أخذت منه شهادة رشدي، أوّل بطاقة هويتي. سلام يا زمن المراهقة السعيد ! وبعده مباشرة، محل بيع الحيوانات الأليفة والأسماك. هل لا يزال يديره ذلك الروسي الأشقر الغريب ؟ يا له من ثرثار، هذا الذي ستتّهمه مصلحة الهجرة بالتشويش على سلامة لغة مواطنيه المقيمينَ هنا ! لسنا بحاجة إلى الشراء كي يُسمعنا خطاباته اللانهائية حول ضيوف سفينته، ونتعلّم من عندهَ كل الأسرار التي تخصُّهم. أكيد أنّه يدرك أننا، نحن الأطفال، لا ندخل إلى محله إلا بدافع الفضول. ما كان يجذبني تلك الأحواض الزجاجية التي تحوي أسماكا عجيبة غريبة كما قطع من قوس قزح. لقد نجح في غرس تلك البذرة النادرة بداخلنا : إدراك مسئوليتنا تجاه الحيوانات، خاصة عندما نقرّر تربية واحد منها، حتى وإنْ تعلّق الأمر بحلزون. كان والد مايجا-لينا يملك حوُيْضَ سمك. أتذكّر جيدا تلك العناية وذلك الشغف اللذين يستخدمهما للاهتمام بتلك الجواهر الحيّة.

لا سيارات في الأفق. لنعبر الطريق. هنا يبدأ شارع الفراشة، بيرهانكاتو، اسم على مسمى لكونه يقع بقرب تاجر حيوانات. خلال فترة الحرب، عندما لم تكن لدينا المياه الساخنة في منازلنا، كنا نذهب إلى الحمام العمومي الذي لم يعد موجودا. الباب الأيمن : مدخل النساء. الباب الأيسر : مدخل الرجال. كنا نذهب أيام السبت زوالا، في موكب، أمّي، جدّتي إيما، أختي وأنا -آخر عنقود العائلة. أجهل كيف كان يفعل أبي. ربما كان

يغتسل في مقر عمله. تحمل كل واحدة منا حقيبة غاصة بملابس التبديل، والصابون، وكريات الزيزفون، والمناشف، وتحت الإبط إناءً فرديا. هكذا نصل دوما بقضنا وقضيضنا أمام تلك السيّدة المهيبة والتي هدّها العمر، المكلّفة ببيع تذاكر الدخول. كانت أمّي تتقدّمنا دائما. ننتظر أن نستلم مفاتيح الخزائن الحائطية التي نضع بداخلها حوائجنا. تتلقى كل واحدة منا مفتاحها، إلا أنا، قدّروا أنّي صغيرة ولست أهلا لأخذ مفتاحي الخاص. يا إلهي، كم كان حزني كبيرا ! كم كنت سأسعد برؤية نفسي، كما الأخريات، والخيط المطاطي بمفتاحه يشدّ عرقوبي، وأنا أمشي والمفتاح يرتطم ضد أرضية الحمام محدثا تلك الرنات الجميلة. كان هذا النقص يُنغِّص مُتْعتي في أخذ الحمام.

تستقبلك الضوضاء إلى حدّ الدوخة بمجرّد أن تدفعي باب قاعة المياه الأولى : زوابع من البخار، صيحات، قعقعات الدلاء الحديدية. كنت عارية مثل الأخريات جميعا، ولم أطرح أسئلة حول موضوع عريي أو عري الأخريات. ولم يمنعني هذا من ملاحظة الاختلاف الكبير الحاصل بين الأجساد. يحدث كل شيء على مقاعد طويلة وعريضة. نستطيع، إنْ أردنا أنْ نمتّع أنفسنا، كراء خدمات مُدلِّكة محترفة. توجد دائما واحدةٌ مُستَعدة للخدمة. وكنا نَرى النساءَ اللائي يُسلّمن أجسادهن لأيديهن الماهرة ممدّدة على المقاعد، العيون مغمّضة، ويدمدمن من فرط الارتياح. ولم نكن نحن بحاجة إلى هذه السيّدات كي نبادر إلى العناية بأجسادنا. ومع ذلك أتذكّر أنّي سُلِّمت مرة إلى واحدة منهن. هدية من أمّي التي ظنّت أنها ستُسْعِدني

بها. استسلمت لمناوراتها وأنا مرعوبة : دَعكتني كما تفعل مع العجين. كسّرت عظامي مثلما نقول. ثمّ تناولت فرشاة وبدأت تدعك بشرتي شبرا شبرا. فكّرت مع نفسي : «ليتها لا تلمس أسفل بطني»، إذ أخاف أن تدغدغني في هذا المكان. أعرف أنّي لن أطيق المقاومة. سأنطلق في ضحك مجنون، وأتقلب كما الدودة. لم يحدث شيء من هذا، وعوض العذاب الذي توقعته، أحسست بارتياح لا حدود له. وبعد ذلك، انحنت المرأة جانبا، أخذت إناء ماء ساخن، فيما أغمضت عينيّ واستنشقت بقوة، مستعدّة لاستقبال الماء على جسدي. تَدفّق الماء الساخن على رأسي ليخرج من أذنيّ، وبين ساقيّ، متبوعا بدفعة ثانية من الماء البارد. كنت كما لو أنّي ملفوفة بفَرْوَة من الإبر، فأحسست أنّ روحي ستخرج من جسدي. أصبحت صمّاء بكماء. ومع ذلك، سمعت صوتا بعيدا يقول لي :

«انتَهى العُرسُ يا صغيرتي. يمكنك الوقوف».

فتحت عينا، لم أكَد أتعرّف على نفسي –أين أنا ؟–، اندهشت من هذه النبرة العطوفة عند شخص عصرتني يداه الخشنتان منذ قليل كما تُعصَر الثياب.

ولن أتحدّث عن غرفة التَعْريق. لم تطأها أقدامنا أبدا. توجد عدّة أسباب لذلك. أوّلا ليس بمقدورنا نحن الأطفال ولا جدّتنا، بابا إيما، مواجهة الحرارة المرتفعة التي بداخلها. ثمّ إنّ أمّي الموسوسة بالنظافة لها اعتراضات على ذلك المكان. زيادة إلى أنّ الغرفة تبدو لها مشبوهة نتيجة ما تحكيه السابحات، أو لما

تَتعاطى فيها من أفعال مريبة، لم أعرف طبيعتها أبدا. لم أحتفظ إلا بذكرى عائمة، أو بالأحرى شاعرية، حينما ألقيت نظرة مختلسة ذات يوم. كانت براءتي تحميني من بذاءة الراشدين.

كانت اللحظة الأخرى الكبرى للتتويج باحتفالية الحمام حينما نطلب من السيّدة القابضة أن تأتي لنا بأقداح كبيرة من مشروب «كْفاس»، بعد الخروج من الغرفة الساخنة مباشرة، لنبتلعه ونحن لا نزال ملفوفات بالمناشف. كان طعم هذا الـ«كفاس» متفرّدا. أنعَش من الماء، ألطف من البيرة، ليّن، مزبد، أسمر ومثير للحلق : لا يوجد مشروب في العالم يمكن مقارنته به. وبعد ذلك نعود في موكب مماثل إلى المنزل حيث نجد الأب قد أعدّ الأسِرّة التي لا تنتظر إلا استقبالنا.

في ليلة الحمام، يداعب الإزار الجسد بكيفية خاصة. نظن أنفسنا بين أيدي الملائكة. في تلك الأمسية، يسود جوّ عرس. الربّ نفسه يتفهم الوضع، ويسمح لي بالقفز على صلاتي. كنْت أنام قبل أنْ أصل إلى السرير، مرهقة ولكنه إرهاق لذيذ.

اتّخذْت هذا المسلك خصّيصا للمتعة التي ستنتابني عند مروري عبر شارع الفراشة، تجرّني الذكريات، وأنا أمشي بفستاني الخفيف وبقدميّ صندل، وعلى رأسي مظلة شمسية عريضة. أعود الآن إلى شارع فُنْدق أكاديمِكا.

هذا آخر يومي في بوهجان. غدا، سأسافر إلى مدينة كيفينلينا.

- 3 -

كنا، أوليغ وأنا، نلعب لعبة العائلة في كيفنلينا حيث بدأتُ مباشرة إعطاءَ دروس اللغة للأجانب. الحقيقة الساطعة والحزينة معا في قصة «بغْماليون» أنه فقد كل اهتمام لعمله بمجرّد أن خرج من يديه. لا تضيء جميع أنوار الحب إلا لحظة الولادة.

إن عملي في الجامعة يبتلع كامل وقتي. لا أملك لحظة شاغرة لي.

تُشير الساعة إلى الحادي عَشرة ليلا، استيقظت الآن على إثر حلم. نادرا ما أرى صُلْحْ في الأحلام مثلما هو عليه في الحياة. أشعر به كقوة حاضرة، لكنها بلا غلاف شهواني. ولكن هذه المرّة، كان كاملا، الرأس والجسد والمظهر. كنا، أوليغ وأنا، نستقبل الأصدقاء في مريكور، في ذلك البيت الذي لم نسكنه بعد. فجأة، عبّرت لأوليغ عن رغبتي في مكالمة صلح لأطلب منه الالتحاق بنا. انتبهت إلى إحراجه. ولكنه تحفظ ولم يقل شيئا. نحن في الحديقة، وبأيدينا كؤوس. أتذكّر أنّي أعطيت ظهري للضيوف وانتظرت أنْ تبرز صورة سيارة بيضاء وصُلح بداخلها. أخيرا ظهر. فنزل من السيارة. عند مروره، أخفى سياج نباتي وجهَه. لحظة خاطفة. برز ثانية، يا ربّي ! لقد تغيّر كلية إلى حدّ مكثت في مكاني جامدة من الذهول. يشبه صورَه، تلك التي كان فيها مريضا والتي أراني إياها ذات مرة. ومع ذلك تقدّمت نحوه لتقبيله، ولكنه عبَرني كما لو أنّي كنت

غيمة. تابَع سيره وسط الضيوف، وهم يتراجعون إلى الخلف، ليفسَحوا له الطريق.

في اللحظة التي خرج صُلح من السيارة، سمعت أوليغ يرفع صوته عند ظهري ليشرح لضيوفه، كما لو أنه يعتذر لهم : «لا تندهشوا إنْ لم يوجّه لكم هذا الرجل أية كلمة».

لا أستطيع النوم ثانية. أنا مضطربة، قلقة. منهارة. لماذا تصرّف معي بهذا الشكل ؟ إنّ الخرطوشة التي أحملها على عنقي تثير الحيرة عند الناس. سألني أحد طلبتي إن كانت صفارة أستعين بها في حالة الاعتداء. أجبته :

«نعم، هذا هو».

أهداها لي صلح بعد أن وضع شيئا بداخلها. ما هو ؟ شيء لحمايتي.

هذه الدروس الجامعية عمل جبار في كل لحظة. لو كنت أعرف صعوبة الجمع بين التدريس والرضاعة، كنت رفضت المجيء، وكانوا سيستخلفون شخصا مكاني. يبدأ يومي على الخامسة صباحا، وحينما أعود إلى البيت، مُفرغَة، تكون الساعة الرابعة زوالا. مُفرغَة، هذه هي اللفظة المناسبة لوصف حالي. أنام مباشرة. أنام إلى غاية الحادية عشر ليلا إنْ لم يوقظني لكس أثناء ذلك. ثمّ من جديد، أحضّر دروس الغد، ولا أذهب إلى الفراش إلا على الواحدة صباحا.

ليس عندي وقت، ولا القوة، لأمُرّ إلى البريد لمكالمة صلح. يساعدني أوليغ كثيرا، ولكنه لا يقدر فعل شيء ضد تعبي.

وكما أنّ هذا لا يكفي، فيجب المشاركة في الاستقبالات الرسمية، والزيارات المنظّمة، وأشياء أخرى كثيرة. وباستمرار يجب استخدام لغات أخرى غير لغتك. جميع اللغات، لأنّ طلبتنا يأتون من بلدان بعيدة، -حتى من الجزائر. ولكن ذلك الجزائري لم يشرّفنا بحضوره. كان صلح قادرا على تعويضه. يكون مانع الحمل هو الذي أحدث لي التهابا، يؤلمني كثيرا.

أقوم على السادسة صباحا لأُرضع لكس. لقد كبر كثيرا. كما لو أنه يكبر أثناء النوم. بما أنّي لا أكاد أراه طوال النهار، فيبدو لي أنه ينمو أكثر خلال غيابي. بدأ يقبض الأشياء. يثرثر بطريقة جديدة. بغتة، يغرق في ضحكات طويلة...

أنظر إليه باهتة وأفكّر : «هل أنت ابني حقا ؟»

هذه الليلة أيضا، هزّني حلم بقوة. كنا في بوهجان، صلح، أوليغ وأنا. كانت ترافقنا امرأة، مجهولة الهوية. يحمل أربعتنا حقائب، نمشي في شارع ملتو بالضاحية. عند دورة، استعدَّت المرأة المثقلة أكثر منا للعبور كي تستقل سيارة أجرة. ركضتُ لمساعدتها. تابعني أوليغ بطريقة آلية. بقي صلح في الجهة الأخرى، حقائبه في يديه. بعد أن رأيت كل هذا، ساعدت أوليغ والمرأة للركوب داخل الطاكسي. وبعد ذلك عدت على قدميّ. التحقت بصُلْح. تفرّسنا بعضنا البعض. كان هذه المرّة بملامحه الحقيقية. كان هنا، واقفا وقفة صلبة، أستطيع لمسه.

حينذاك تساءلت، وهو يركز كامل اهتمامه نحوي مثلما اعتاد أن يفعل، الوحيد الذي يحسن فعله، لماذا لا يضمّني إلى صدره ويقبلني. وها هو يمدّ ذراعيه، يستقبلني، يداعب شعري بخده. ثمّ صوّب بصره نحو عينيّ، ووضع شفتيه على شفتيّ. لم يرخِ ضمته، فقبلني طويلا إلى حدّ الاختناق. فسقطت على الثلجِ. لفّني بجسده. كان الثلج كثيرا حولنا.

يا صُلح، أبارك اليوم الذي رأيتَ فيه النور. هل هو أثر هذه الفكرة ؟ غمرتني رؤية : طفلان يحملان ملَكا جريحا لا يكبرهما، وهو جالس على نقالة، وعيناه معصوبتان. ملَك أبيض كما النوم. كيف أفسّر هذه الرؤية ؟ إنّ ما تقوله غير قابل للتفسير. ومع ذلك، يا صُلح، أريد أن أحط بين يديك شيئا شبيها بهذا الشيء الذي يوجد بين الطفلين، الشيء الذي تخفيه زهرة بين تُويْجيّاتها.

أتذكّر، وفجأة، أضحك على نفسي. رأيت لوحة لهيجو سيمْبَرْغ أمام عينيّ بوضوح مُهلّس. من جديد، تخونني الكلمات للتعبير عمّا أعاني.

أنتظر مكالمتي معه. الجوّ حار لا يطاق. 25 درجة. حرارة مرتفعة، مفرطة، نكاد نختنق. ذهب أوليغ إلى الشاطئ وأخذ معه لكس. شُيّدت مدينة كيفنلينا في مفترق بحيرات عديدة، في منطقة السّيْمة. الشاطئ في كل مكان. يمكن أن نسبح في أي مكان، المياه نقية. حيثما ذهبنا، توجد الصخور والأشجار، نتعرى خلفها دون حرج. الحياة بسيطة وسهلة في مدينة صغيرة

برغم حضور عدد كبير من المصطافين. ولكنها قد تُشكل خطورة في الشتاء حينما يبقى السكان فيما بينهم فقط !... لم أتلقَ إلا اليوم 20 جويلية رسالة من صلح مؤرّخة في 13. كانت فترة صمت طويلة. أكيد أنه سيأخذ عُطلتَه قريبا هو أيضا. هل سيكتب لي من المكان الذي سيذهب إليه ؟

وصلني طرد منه هذا الصباح. لم ينسني. أكيد أنها هدية عيد ميلادي. لم أفتحه بعد. رغم أنّ شوقا جامحا يدفعني لمعرفة فحواه، إلا أنّي أنتظر. أفضّل الانتظار.

آه على هذا الإرهاق ! الإرهاق نفسه. إرهاق الأيام العادية. هذه الأيام التي أعدّها. عند كل فجر، حينما يوقظني لكس، أتساءل أين سأعثر عن طاقة الاستمرار. ويصل المساء. يمر اليوم. فأكون في العموم راضية عن عملي.

الجمعة 23 جويلية، عشية عيد ميلادي. كان الطحلب الأبيض الذي نمنا فوقه، صلح وأنا، في جزيرة فيلجادا، مماثلا. ينبت هنا أيضا. يُسمّى طحلب الدبّ. ولكن حدث هذا في السنة الماضية. في فيلجادا. مرَت سنة بسرعة، وسوف لن تعيش إلا في ذكرياتنا. يزقزق لكْس في مهده. طلبَ مِني صُلْح في رسالته التي تلقيتها اليوم إنْ لم يكن من الأفضل لنا أن نتوقف عن رؤية بعضنا البعض. سيكون مثلما يحلو له. مع أنّي أجد أنه من غير المفيد رسم حدود للحب. بالعكس، ينبغي معايشته بصعوباته وتسليم الأمر للقدر.

سنغادر كيفِنلينا ، أوليغ، أنا ولكس، يوم 15 أوت كي نكون في فرنسا يوم 18 أو 19. لن أبعث بأية إشارة لصلح.

إنّي دائمة التفكير في الخرطوشة. تلك الخرطوشة التي وهبني إياها. ماذا تخفي ؟ أطرح السؤال. لغز حقيقي. وإنْ فعلها ليُسحرني ؟ ولَوْ... ربّما يكون قد سحرني. سؤال آخر : هل يملك قوة روحية ؟ ما نوعها ؟ يُرهبني صلح أكثر مما أتصوّر. أبسبب هذا ؟ أم لسبب مختلف تماما ؟

لا أستطيع العيش بدونه، ولا هو بدوني أيضا. هذا هو السبب. هذا هو السبب ببساطة.

- 4 -

اليوم عيد ميلاد آخر، إنّه الثالث، عيد زواجنا. كم من أعوام مرّت، ومن دموع سالت. وكم كان هذا الصيف مليئا بالمعاناة. لي، لصلح، لأوليغ.

ما أن وصلنا إلى كيفِنلينا في بوهجان حتى باغتنا ضيف كندي بزيارة غير متوقعة. آه على هؤلاء الناس ! هؤلاء الذين لا ينتبهون أبدا إلى ثقل حضورهم ولو عند الأصدقاء. ولا إلى العمل الشاق الذي يفرضونه على صاحبة البيت. أرهقني هذا الحضور وجعلني مكتئبة، خاصة أنه جاء مباشرة بعد فترة تدريس صعبة. إنّه شخص مهم لمسار أوليغ المهني، لذلك وجدتني أعبّر عن سخطي أمام أوليغ فقط، ودون أن أرفع صوتي.

بالأمس، رأيت حلما لست مستعدة لنسيانه. جاء بَعد حلم آخر أول أمس والذي لا أتذكّر منه سوى مقطع حيث كنت أرى صلح ينزلق على نوع من الوحل، سائل بلا اسم. كنت أنا أيضا أتخبط بداخله في محاولة لإخراجه. يئست من النجاح في إنقاذه، وأنا في آخر قواي، في آخر نفَس، فاستيقظت.

أما الحلم الآخر فبدأ مع قراءة الجريدة قامت بها أمّي لصالحها وصالحي معا، مثلما تعوّدت أن تفعل. كنت إذا أستمع إلى الأخبار. ذكرَت اسما يخصّ حرب الشرق الأوسط فتوقفَت لتستفسر عن كيفية كتابته. انتفضْت برغم أنّي استمعت جيدا وقلت : «أيّ اسم ؟ كرّرت : «Solh». هل نكتب حرف h في الأخير ؟ تضاعف اندهاشي وفكّرت : «ماذا، هل تعرف ؟ أم أنها تنتظر بوحا مني ؟ أمّي الداهية، هذه طبيعتها». ودون أن أظهر ارتباكي قلت : «نعم، أظن أنه يُكتَب بـ h». قامت مباشرة وكتبت SOLH، كما لو أنها خطّت لوحة قانون موسى. هنا انقطع خيط حلمي. رأيت نفسي بعد ذلك أعود إلى البيت. كان الباب قديما، عظيما، من النوع الفني jugendstil ، المنتشر في بوهجان. بدا لي كما لو أن حرفين ينتظراني عند العتبة، حرفان تعرّفت على أحدهما مباشرة، إنه من اسم صلح ولكنه ممزّق. تأملت الأجزاء المتراكمة على الأرض. امتلكني هاجس. هاجس مرعب. أسرعت إلى غرفتي. على سريري، تمدّد رجل، عارٍ، شيخ، هيكل عظمي حقيقي. عند دخولي، وقَف ضربة واحدة كما لو أنه استجاب لإشارة، ثمّ تقدّم نحوي ببطء، مادا

ذراعيه على طريقة العميان. خمّنت : «جاء ليخنقني». ركضتُ باتجاه الباب و... استيقظت صارخة.

من جديد رأيت حلما هذه الليلة. كنت ذاهبة إلى عرض أزياء برفقة شخص شاب وجميل، أمشي بجواره وكياني يفيض بإعجاب صامت. ولكنّي عاجزة عن القول إنْ كان رجلا أو امْرأة. هل من الممكن أنْ يكون الاثنَين معا ؟ في بيت الخياطة، اتّضح أنها امرأة بسبب ذلك الجمال الأخاذ الذي يُسلِب العقل. قمنا باختيار فساتين من نسيج أبيض شفاف كما الغيوم وخرجنا نتجوّل وسط ريح الشوارع. قلت مع نفسي : «قد أكون لا أزال شابة، وجميلة أيضا». غادرنا باريس ومشينا بمحاذاة نهر السين، حيث كنا نحبّ التجوال دائما صلح وأنا. وبعد ذلك رجعنا وعدنا إلى البيت... عبر الباب العظيم للحلم السابق ! في غرفتي، كان السرير نفسه وفي المكان نفسه. بغتة، وجدت نفسي أمام فتى –الفتاة نفسها ؟ أحسست أنّ رغبة مشتركة تؤجّجنا. كان أصغر مني، في حوالي السابعة عشر أو الثامنة عشر من العمر، بينما لا زلت في عمري الحالي. وفيما كنا نستعد للذهاب إلى الفراش، رنّ الجرس. ذهبت لأفتح الباب؛ لا أحد. أمام الباب، أدركت أنّي فقدت الفتى إلى الأبد. بالفعل، حينما عدت إلى الغرفة لم يكن موجودا.

إذًا، حدث هذا مع الفجر. عندئذ صرخت. بل عوَيْت كما تفعل الذئبة حينما تنادي الذئب. هزّني أوليغ. وضع يده على

فمي. حاول إيقاف صراخي. أظن أننا تشاجَرنا. لم ينجح في إسكاتي. لكس أيضا صرخ معي، عوى مثلي.

بعد قليل، استرجَعنا هدوءنا، مع ابني.

وجاء الليل. فلم أقدر على المقاومة. الليلُ حيث تعْوي الذئاب. فعوَيْت. وناديته أيضا بصلح الذئب. ناديته، ناديته. وعوَيْت.

وعند الصبح، جاء. ليس صلح الذئب، بل الآخر. ذلك الذي كان يرتدي الأبيض كله. كان واحدا، كان اثنين. كان اثنين ونفسه. كان ثلاثة ونفسه. أربعة ونفسه. كان نفسه، وكان آخر. كان النساء حيث أخذوني. في ذلك البيت حيث أخذني هو والأخريات. الآن أنا وحيدة وفي مكان مغاير. مُنغلقة في هذه الغرفة، وفي مكان مغاير. لا أعرف ماذا أفعل هنا. ولا لماذا.

قمت بشيء وغرقت في دمي. لطخت وجهي بدمي. كان يجب عليّ أن أغتسل، إنّه الصباح.

فاينة في المنظر

- 1 -

بدأ سفر العودة إلى فرنسا. يوجد ثلاثتنا في الباخرة المتّجهة نحو ستوكهولم. لكس نائم. لقد كبر. في الشهر الرابع، يزن حوالي سبعة كيلوغرامات. ضعف وزنه عند الولادة.

لأوّل مرّة، أغادر بلادي بلا ندم. تأخّرت كثيرا كي أسلك الدرب الذي يعيدني إلى صلح. لماذا انتظرنا كل هذا الوقت لنبادر إلى السفر : لا أعرف. أفضِّل عدم تذكّر السبب. مُنذ أنْ مَسّني الغموض والعَصيّ الطوق. منذ ذلك العهد. أصْغي إلى الضوضاء حولي، ثمّ أَغفو دون أن أنام فعلا، أو أنام حينما أعتقد أنّي أمشي. لم أكن في سريري، وإنما في مكان آخر. الزمان أيضا كان مغايرا. ومثلما يحدث معي دائما، كنت في مكان مغاير أيضا. طوال جميع هذه الأزمنة. في مكان مغاير، بعيدا وسط الليل، عاجزة عن التوقف في مكان ما، عن الوصول إلى مكان ما. مَشْي لا جدوى منه، لتلك التي تنام ولا تنام، مثلما نجتر سلسلة من الكلمات العبثية. بَعد عناء

يائس، ها أنا واقفة على حافة العالم، حيث تبدأ الهاوية، حيث يحدث السقوط. هناك حيث لا يرتفع إلا هذا الصوت ليقول : «ستشبهين شوكة في السهوب... سينتهي بك المطاف وسَط أمكنة صحراوية محروقة».

في مِريكور. وجَدنا منزلا أشبه بورشة. كان لزاما علينا قضاء الليل، وإلى غاية 15 سبتمبر، عند أصدقاء ذهبوا في عطلة وتركوا لنا كامل الحرية للتصرف في منزلهم. بدا لي كل هذا طبيعيا جدا. لا أستطيع التعبير عمّا أحس به أفضل من هذا. عند حلول المساء، جلست عند عتبة الباب المرتفعة وانتظرت صلح، مع يقيني أنّه سوف لن يأتيَ. يجهل أنّي عُدت. ومع ذلك أنتظره. وبمجرّد نزول قليل من البرودة، أذهب للنوم. أتمدّد فوق السرير، أنظر إلى أديم السماء الذي تؤطّره النافذة والنجوم التي تشتعل. كما أبْصِر أيضا رأسَ شجرة بلّوط كبيرة. خمّنت خلالها : «غدا سيأتي». فكّرت ثانية : «غدا سيأتي».

سنقضي حياتنا في الانتظار. خَطرٌ. رِهانٌ. الجوّ ثقيل. لا يتحرّك الغسيل فوق الحبل. فكّرت : «يوجد على الجهة الأخرى من السكة الحديدية». وبعد ذلك فكّرت : «ينتظر هناك لأنه لا يملك عنواني». وبعد ذلك : «يا لصلح المسكين !»

يا للخسارة أنّي لا أعرف الطيور الفرنسية. يوجد واحد مقابلا لي، صغير وثخين، بمنقار طويل، ورقبة برتقالية، وقذال

منتفخ لشخص مهم، والذي يقول لي شيئا ما بلطف، كما لكس تقريبا.

لماذا لا تأتي يا صلح ؟ إنّي جديدة تماما. أتعرف، كما الأرض الجدباء بعد غيث.

الآن، عندما أكلّم الناس، يمكنني أن أخاطبهم بثقة كبيرة وأنا أخوض معهم في أمور تافهة، كما لو أني أعبّر عن أشياء لم يتلفظ بها أحد قبلي. يناديني لكس.

مرّ يومان. حلم هذه الليلة : يئنّ رضيعي. أبحث عنه، مدركة أنه يوجد داخل علبة أحذية، مخفية بداخل خزانة كنت أختفي بداخلها في ألعابي وأنا صغيرة. خشيت كثيرا أن يختنق. أعاني من أجل الوصول إليه. تحيطني المعاطف المعلقة في الظلام بأذرعها اللينة، بقصد صَدّي. وعندما نجحت في الإمساك به، انغلق باب الخزانة علينا وبَدأنا نختنق بالفعل. فجأة سمعت صَوت صلح. الشيء غير المتوقع أنه كان يتكلم بالروسية. أيقظني الصراخ الذي كنت أطلقه لإعلامه بوجودنا داخل هذا السجن.

بدأ هذا الأحد الأوّل من سبتمبر بتمزيق رسالة كتبها صلح، والتي لم أتقبّل رؤيتها بعد الانتهاء من قراءتها. ولم يبق لي الآن إلا أن أواصل نهاري بلجة من اليأس بأمواجها البطيئة، تنتفخ وتنزل تباعا بكل ثقلها.

قمت باكتشاف غريب نهار أمس. شجرة البلّوط التي أراها من نافذتي : لها غصنان نشرا بحيث يشبهان ساقي مشنوق.

لم أنزع بصري عنهما منذ الثانية التي اكتشفتهما فيها. أُقسِم أنّه بدا لي في لحظات ما أنّ الساقين يتحركان، هوس فعلي. إنّ هذه الشجرة المبتورة مئوية بلا شك، وجميلة جدا. هل يصبح الشخص الملعون بالحب متطيرا من كل شيء ؟ لم أعد أجرؤ على فتح علبة البودرة التي أهداها لي صلح في عيد ميلادي. قبل أيام، أردت استخدامها، فرأيت بصره واضح المعالم في المرآة، والآن خفت أن لا أراه ثانية.

أفسّر جَميع علامات النهار. بدءًا، أحاول تصنيفها عبر سلاسل، أمّيز بين تلك التي قد تكون في صالحي – ثم الأخرى. في حقيقة الأمر، لا أتعرّف جيدا ولا أحتفظ إلا بالسيئة منها. أحيانا، أسأل الأشجار، أو نوافذ الجيران : هل سيأتي، أو لن يأتي ؟ أضمّ لكس إلى صدري وأسأله عن أخبار صلح. وكانت نصف المداعبات التي أغدقه بها موجهة إلى صلح.

بالأمس، بدأ النهار بهذا البلّوط. وبعد ذلك، ذهبنا لشراء سرير للكس. أثناء الطريق، كنت أراقب كل سيارة بيضاء تمر، آملة أن أتعرّف على سيارة صلح، ثمّ جميع السيارات بلا تمييز، بيضاء أم لا، إن كان صلح يوجد بداخل واحدة منها. فعلت الشيء نفسه في المركز التجاري، فعوض الاهتمام بما أتينا من أجله، أصبحت أحدّق في جميع وجوه زوار سبت الدخول هذا. أختلس النظر إلى هذه الوجوه الكثيرة العدد، مع رغبة جامحة في التعرّف على وجهه، واحتمال وقوع الصدمة التي ستشلّ ساقيّ من ثانية إلى أخرى. لعبة خادعة تكرّرت ألف مرّة.

علبة مرايا خيّبت أملي ألف مرّة. يا للمجنونة، كيف أفكّر أنّي سألتقي صلح صدفة في هذا المكان. لا أعرف أين أوجد. لا أعرف أين أوليغ. لم أتمكّن حتى من إيجاد طريقي داخل هذا المركز التجاري الضخم. في الأخير، تُهت. حينما استعادني أوليغ، لم يجد أمامه إلا خرقة باكية.

بمجرّد العودة إلى البيت، غرقت في نوبة عصبية. لم أتصوّر أبدا أنه يوجد بداخلي هذا الكم الهائل من الهلع والدموع. استمرت أزمتي، لم تترك لي فرصة للراحة، دامت ساعات طويلة. كان الرضيع في حالة يُرثى لها. من جهته، بكى أوليغ أيضا. لم أكن أشعر إلا بحالة من الضباب حولي. ليست هذه الأزمة هي الأولى منذ عودتنا إلى هنا، ولكنها الأخطر بكل تأكيد.

هذه الليلة، رأى أوليغ شجرة البلّوط في حلمه. هو نفسه، البلّوط الأبتر. حينما استَمعْتُ إليه يحكي حلمه، كادت أعصابي تتفجّر كلية. مع أنّي لم أحدّثه ولو بكلمة عن موضوع هذه الشجرة، ولا عن الأثر الذي تركته في نفسي. رآنا أوليغ، هو ينشره، وأنا أجذب الحبل الملتف حول الغصن الرئيسي. فجأة، انفصلت شجرة البلّوط، تمايلت : إنها تسقط. صرخ لي أوليغ برمي الحبل والهرب. ولكن الشجرة سحقتني تحتها.

لا ريب أنّ هذه الحياة سحقتني.

المنزل، **منزلنا**، توجد به الحصى إلى غاية الوتد. لم أعد أتحمّل الطفل برغم أنه ملَك. توصّلت إلى اكتشاف عواطف

عدوانية اتجاهه بداخلي. ألا يُقيّدني إلى وضع ربّما لست أهلا له ؟ أفرغتني الضربة التي سحقتني كما تُفرَغ البهيمة المذبوحة. ولكنها قوتي الوحيدة ضد الجمود والبلادة اللذين سلّطا عليّ.

أكيد أنّي بدأت أشكل حملا ثقيلا لأوليغ الذي، ينبغي الاعتراف به، يأخذ الأمر بصبر كبير. لم تعد لنا علاقة جنسية. قمنا ببعض المحاولات بعد ولادة لكس ولكننا تخلينا عنها. كان لا يغامر إلى لمسي لأنّ الشلّل يغمرني مباشرة.

يوجد الطفل وكل ما يرافقه ليشغلنا ويربط بعضنا لبعض. لحدّ اللحظة، لسنا بحاجة إلى زيادة.

حلم آخر. هذه الليلة أيضا. كنّا، صلح وأنا، في السنة الماضية، موجودَين في شقة أعارها لنا أحد معارفنا، ليس لنا فقط وإنما لزوج آخر جاء هو أيضا يقضي حفلة رأس السنة في باريس. اشتعل الغاز في زاوية، تماما مثل يوم دخولنا الشقة، نحن الأربعة. كان المكان في الحلم مظلما والنيران مرعبة. ولم يكن ذلك هو الأخطر. كنت أرى صُلْحْ يحترق أيضا. هل وجَب عليّ أن أرمي بنفسي داخل اللهب لإنقاذه ؟ كنت أبحَث عن طريقة أخرجه بها من هناك. قادني الجزع الذي يخنق صدري إلى رمي نفسي يائسة داخل نفس اللهيب. وقمت بعَضِّه. انقضَضْت عليه كالكاسرة. كانت لي مخالب، فغرزتها في أضلعه. كلما زاد هلعي زاد ضغطي وتعذيبي له. الدم، اللهيب، العذاب، دوّختني كل هذه الأشياء. ومع ذلك لم أرخ شدّي. أحسَسْتُ بصلح كما لو أنه لا يزال بين مخالبي، بداخلَ فمي، حينما احترق كحزمة

تبن دون أن يترك أثرا. انتابتني نوبة تشنّج، والتوَيْت حول هذا الفراغ. أحسست بطعم قبر مرعب على لساني.

ظهرت أولى بوادر الحيض منذ ولادتي، وهي لا تزال متواصلة. جاءتني الأخيرة بعد يوم من ذهاب صلح من بوهجان، في الصائفة الماضية. بعد لقائنا بأيام قليلة. أربعة عشر شهرا تحوّلت إلى لا شيء، تبخّرت. كان يبدو لي في لحظات أنّ حياتي مرسومة سلفا. على طول الخط وإلى النهاية. وأنّه لم يبق لي إلا فك شفرات محطاتها في تتابعها الحتمي، واجتياز مراحلها.

كنت، وأنا طفلة صغيرة، أرتّل دعائي كل مساء قبل النوم. ولكن في بعض الأماسي، أجد نفسي مرهقة إلى حدّ لا أعثر حتى على قوة همس كلمة اتجاه الربّ. مع العلم أنّني كنت أغطس في عظمته، مثل طفل يسلّم نفسه لأحضان أمّه. حاليا، حينما يخيّم الليل، أغطس في عظمة صلح. ولا أشعر بظل رغبة في هذا الاستسلام، هذا اللجوء. يكفيني ابتهاج نسيان نفسي بين ذراعيه ومعرفة أنه ساهر على حمايتي. إنّي أثق في صلح، وأحتفظ بهذه الثقة مهما حدث. إنه أشبه بربّ سنوات شبابي : ملاذي السعيد، الاحتماء المطلق.

تمرّ الأيام.

كبر ابني. كلّما زاد نموه إلا ووجدت نفسي أندهش لكوني أمّه. تتناثر الحصى دوما في المنزل. في كل مكان، تترامى بقايا الجبس والآجر المكسّر والأخشاب والروافد. والغبار، ما

أكثر الغبار ! كيف أصبحت غير مبالية أمام كل هذا الركام من الأنقاض ؟

- 2 -

– ألو، نعم ؟

– ألو، صلح ؟

– فايْنَة ! صباح الخير ! كيف حالكِ ؟

– لا بأس، شكرا. وأنت ؟

– ولعُمري أنا أيضا لا بأس. والأهل ؟ والبيْت ؟ أكُلّ شيء على أحسن حال ؟

– نعم، شكرا. ألا... ألا يزعجك أن أهتف لك ؟

– فاينة ! بالعكس تماما ! ما هذه الفكرة ! يسعدني كثيرا أن تتصلي بي. وتعرفين هذا.

– نعم، ولكن... صحيح ؟ هل هذا صحيح ؟

– نعم. إنها الحقيقة الكبرى. ماذا تقولين ؟

– أقول في ماذا ؟

– لا بأس ؟

– لا بأس. وأنت ؟

– لا بأس.

– هل هذا صحيح ؟

– نعم... ولَكْس، كيف حاله ؟

– آه على لكس ! إنّه في صحة جيدة. دائما في طاقة متجدّدةً. ينمو بسرعة. ثمّ إنه يزن... قل لي، أنت لم ترَ لَكْسْ أبدا. يزن... لو تعرف، سبع كيلو ومائة غراما... أتعرف، له عينان زرقاوان، وفي العين اليمنى، في الوسط تماما، نرى لطخة بنية اللون. ماذا تقول ؟

– غير ممكن ؟ شيء مسل. إنّ لأهلي خليط من الألوان. تعرفينهم جيدا. ووالداك، كيفً حالهما ؟

– في حالة جيدة، شكرا. كانا حزينَين برحيلنا.

– طبعا. وأظن أنهما قد تعلقا بالطفل كثيرا.

– نعم... كلّمتك هذا الصباح، ولم تكن في بيتك.

– لا... كنت مضطرا للخروج لبعض الوقت.

– هل... هل تشتغلين كثيرا دائما ؟ البحوث نفسها حول اللغة الرياضية ونظام «غوتلوب فْرَج» ؟

– لا، إنّي توقّفت. لحدّ هذه الفترة. يوجد عمل إضافي، يجب إنهاء تحديد بعض النقاط. ولكنّي كنت بحاجة إلى التوقف قليلا، مثل «فْرَج» عندما طلب منه «روسَل» حل مشكل التناقض الشهير.

– لماذا تضحك ؟

– ألا ترى أنّي أمزح ؟ لا تظن أنّي سأقارن نفسي بهاتين الشخصيتين.

– لِمَ لا ؟ ستكونين الـ «ويتجينستين» الجديد أو «كارناب» الجديد.

– لا تهزأ بي. على كل، المسألة ليست هنا.

– وأين تكمن إذًا ؟

– تكمن في كون أنّ الشيطان لا يسكن في الفكر ولا في العواطف، ولا في... الحسابات : وإنما في اللغة !

– هل تعرف من أين أكلّمك ؟

– طيّب... أحاول، ولكنّي لم أفلح. أكيد أنّك لا تكلّمي من بيتك ما دمت تطلبين منّي معرفة المكان. من فرساي، أليس كذلك ؟

– لا. من الحانة التي تناولنا، أنت قهوة، وأنا كأس «أرمانياك»، يوم 3 مارس، يوم ذهابي إلى بوهجان.

– غير ممكن ؟

– بلى. إنها المرة الأولى التي أذهب فيها إلى باريس منذ عودتنا. وأوّل شيء قمت به هو اقتفاء أثرك... جئت إلى هنا مباشرة. بدأت بمفترق الطرق لشارع «أرباليت» حيث افترقنا.

– وماذا...

– ثمّ عدت إلى الوراء. أتتذكّر زاوية شارع «برثولي» حيث ركنت سيارتك ؟ صعُب علينا إيجاد مكان للتوقف في ذلك اليوم. في الأخير، توقفت أمام مقصَبة، في زاوية شارع «برثولي» وزنقة أخرى صغيرة نسيت اسمها الآن. أتتذكّر ؟

– نعم... بصراحة لا، لا أتذكّر.

– لنْ تتغيّر أبدا. على كل، لا زالت تلك المقصبة تبيع الدجاج والحُبَيش. مكتوب بالطبشور على لوحة سوداء. مثلما كانت مكتوبة على نفس اللوحة السوداء يوم ذهابي.

– ماذا تقولين ؟ أتتذكّرين كل هذه التفاصيل ؟

– طبعا. استرجعتها الذاكرة عندما رأيتها من جديد. ألا زلت تدخّن السِّيكار دائما ؟

– نعم... لماذا ؟

– هكذا، من أجل الرائحة... وشعرك ؟

– ما به شعري ؟

– هل تركته ينمو من جديد ؟

– لا، قصصته من جديد قبل الذهاب إلى العطلة.

– قصير جدا ؟

– نعم. ولكنه سينمو بسرعة.

– أنا، فقدت نصف شعري. النصف أو أكثر. يسقط بالحزمة.

– عزيزتي، ماذا حدث لكِ ؟

– الشجن الكبير. لا، إنّي أمزح، إنه الحمل. هناك من النساء من يفقدن شَعرَهن بعد الولادة. تقريبا مثل موت «ماو».

– ماذا، ما هذا الهراء ؟ تقريبا مثل موت «ماو» ؟ غريب أمرك !

– لا، ليس غريبا. إنه مرعب باستمرار. أنت لا تتصوّر عنف الولادة. إنها الثورة في كل مرّة.

– أنت تبالغين كثيرا. إنّ ولادة كائن جديد أمر رائع، أليس كذلك ؟

– لا، إنّه شيء دموي ومبكٍ.

– أنتِ غريبة حقا اليوم.

– اليوم ؟ لماذا، هل وُجِدَت أيام أخرى ؟

– ... ماذا ؟

– أيام أخرى. هل هناك أيام أخرى ؟

– نعم، هناك أيام أخرى.

– هل أنت غاضب ؟

– غاضب ؟ لماذا ؟

– لا. أريد أن أقول... أنت... أنت بخير فعلا ؟

– نعم. ويسعدني كثيرا أن أعرف أنّ الوضع كذلك عندكم.

– هل قلت هذا ؟

– أظن أنّي هذا ما فهمته.

– في هذه الحالة، أنت الذي تخبرني بهذا. حاليا، أنام بشكل سيّء. في الليل، أقرأ أقدر ما أستطيع، أو بالأحرى أعيد قراءة ما سبق أن قرأته.

– حقا ؟

– لم أعد أنام تقريبا.

– كيف ذلك ؟

– أنت لست ثرثارا اليوم.

– يعني... في الواقع، لم أكن أنتظر مكالمة منك.

– مرة واحدة على الأقل لم تنتظر مكالمتي ؟

– هذه المرّة فاجأتِني فعلا.

– هل يرنّ الهاتف بطريقة مغايرة حينما أكلّمك من هناك، من بوهجان ؟

– لا، ليس هذا هو المقصود. في واقع الأمر، كنت أفكّر...

– في ماذا ؟

– فيك، فاينة، فينا نحن الاثنين.

– لماذا تفاجأت إذًا ؟

– كنت بعيدا عن...

– بعيدا إلى الأمام أم إلى الوراء ؟

– الاثنان معا.

– هل يزعجك أن أكون أُمًّا ؟

– فاينة، ما هذا الكلام ؟ هذا الطفل، انتظرته معك، مثلك تماما.

– هل العقل هو الذي يتكلّم على لسانك. ولكن صلح الرجل الذي لا يريد رؤيته، لا يريد الاعتراف به ؟

– كيف ذلك ؟ لا أفهم.

– الرجل ! صلح ! أنت رجل، أليس كذلك ؟

– فاينة...

– عفوا. هفوة. آه يا صلح... وجهك، كيف هو الآن ؟ وعيناك... هل يمكن لي أن ألمسهما ؟ أن أقبّلهما ؟ هل تنظر إليّ في هذه اللحظة ؟

– نعم، أنظر إليك.

– مباشرة في العينين.

– مباشرة في العينين.

– إذًا قل لي ماذا يجب أنْ نَفعل.

– ... لا أعرف، فاينة.

– ليس بعد.

– ليس بعد.

– ولكنك قلت لي قبل قليل أنك كنت تفكّر فيّ.

– قلت لك أنّي كنت بعيدا...

– إلى الأمام وإلى الوراء.

– نعم، الاثنان معا.

– وما هي النتيجة ؟

– فاينة، أريدك أن تفهمي...

– أعتقد أنّي أفهمك. لقد تعذّبنا نحن الاثنان. بطريقة مختلفة، أكيد. على كل حال، المقارنة غير ممكنة. ولكنّي أحسّ بك. قلب عظيم داخل صدر رجل بسيط.

...

– ماذا ترتدي الآن ؟ سترة قديمة وسروال القطيفة ؟

– سروال القطيفة وسترة قديمة، نعم.

– بأي لون ؟

– ماذا ؟

– السترة ؟

– بلا لون. أسمر فاتح، لون الرمل، إن أردت ؟

– و السروال، هل هو بنفس اللون ؟

– نعم. السروال بنفس اللون.

– هل حلقت ذقنك ؟

– أووو... لا، معذرة.

– لا عليك. أتعرف كم الساعة الآن ؟

– أووو... لا، لا أعرف... قد تكون الثالثة ؟

– لا، إنها الخامسة.

– غير ممكن !

– نعم... هناك شيء آخر صلح، أريد أن أطلبه منك.

– تفضّلي.

– ألم تجد أنّ الانتظار كان... آه، عفوا، كنت سأتلفّظ بحماقة أخرى... أتعرف بأنّ لكْس بدأ يلمس الأشياء.

– أحكِ، إنه شيء مهم.

– نعم. في عيادة الأطفال، قالوا لي إنّه متقدّم عن سنّه، وقد يعود ذلك إلى مناخنا.

– لا، شيء لا يُصدّق !... آه نعم، الشيء المؤكّد أنّ لديكم مناخا جيدا.

– ومع ذلك ليس سببا كي يمسك بالأشياء في الشهر الرابع.

– له أربعة أشهر ؟

– لا، خمسة !

– خمسة أشهر!

– لا، ستة... لقد مرَت ستّة أشهر، نصف سنة، منذ أن افترقنا، أنت وأنا.

– أعذريني ؟ هناك شَخصٌ سيأتي لزيارتي.

- أنت تكذب.
- فاينة !
- بكل ما هو مقدّس لدينا، أنت تكذب.
- لا، الحقيقة أنه يوجد...
- أعذرني، صلح.
- هل تريدين أن أكلّمك غدا ؟
- أتعرف ماذا أريد ؟
- لا. قلي لي.
- أن أعضّك. أعضّك مثلما أفعل كل ليلة في أحلامي السيّئة التي تسكن ظلام عزلتي. أعضّك إلى أن أغرق في دمك.
- فاينة !
- اِذهَب. هناك شخص ينتظرك.
- لا، شخص أنتظره أنا.
- لا، إنه في انتظارك.
- فاينة.
- هناك شيء آخر.
- إنّي في الاستماع...
- اعلَم أنه إن وُجد شخص مسّ جرح روحي، فهو أنت.

....

- صلح... أتسمعني ؟

- نعم.

- حينما أصير عجوزا وتخشى أن لا تتعرّف عليّ يوم موعدنا، أنظر فقط إلى رقاب النساء. انزَع المناديل والزينة الرخيصة المحيطة بالأغباب المتغضِّنة وابحَث عن الخرطوشة التي تحوي رائحتك... اذهَب !

- 3 -

كانت هذه المحادثة في الهاتف. بَعْد ذلك فتحتُ عينيّ مولود جديد على الحياة. ها قد أُخرجتُ من جديد إلى العالم، من ولادة صلح. تجوّلت في شارع موفْتار، شربت فرحي بملء حنجرتي، فرح الحب. من جديد، أصبحت امرأة بفضله. اشتريت فستانا أزرق اللون كما عيني لكْس. فستان يعود إلى الثلاثينيات. ملابس قديمة متجدّدة، فاتنة دوما، دأبت بعض المحلات على إخراجها من صناديق لا يعلم أحد أين عُثر عليها. أظن أنّ صلحْ سيحبها برغم ذوقه الصعب. ثمّ إنّي اشتريت عطرا جديدا. كيف نختم عهدا، وندخل في آخر ونؤشّر على القطيعة، إن لم نغيّر عطرنا ؟ أليس هذا فعلا محبَّبا ؟ وختمت مقتنياتي بلعبة (حصان خشبي) للكس وتورتَة لأوليغ. أما بالنسبة لصلح، كنت أريد، كنت أعرف ما هو الشيء. إنه شيء محدّد -لا ينبغي أن يكون أيّ شيء. ولكن صَعُب عليّ العثور عليه. سوف لن أترك الفرصة تضيع يوم أقع عليه. سأرسله إليه كذكرى السعادة

التي منحها لي. يا لها من سعادة ! أتعرف لماذا يا صلح ؟ لأنّي تصالحت مع نفسي.

بعد ذلك، قادتني قدماي إلى «مونبارناس». تجوّلت في الحيّ، مررت أمام القبّة، ومن هناك التحقت بمحطة القطار حيث اشتريت الطوابع. كان القطار المتوجّه إلى مريكور متوقفا في الرصيف. سينطلق على الثامنة وأربعين دقيقة ليلا. لكنّي لم أجد القوة التي تسمح لي بالصعود، فلم أتحرّك. أقسم أن شخصا، شيئا، قوة خفية، من الزوايا المظلمة، تشدّني لتريني –ربما سأتعرّف على شيء ما. فمكثت لاصقة في المكان الذي كنت فيه، وفي الهيئة التي كنت فيها، وفي يدي المعذّبة الرسالة التي كنت أنوي وضعها في صندوق البريد، فبقيت أنا أيضا أتعذّب. ذهب القطار. فعرفت.

أَجِد نفْسي هذا المساء على هذا الرصيف، مثلما حدث لنا مساءَ افتراقنا منذ أزيد من سنة، كان صُلح ذاهبا إلى موعد له، وأنا بصدد الالتحاق بأهلي. أنتظر قطاري كما لو أنّي سأُهَجَّر إلى مكان قصيّ، كنت في حالة ذهنية سيّئة للغاية. فجأة رأيت صلحْ ينبثق من داخل المحطة ! ينبثق، يقترب، يركض لاهثا، تدفعه، أو قل تعصف به رغبة عنيفة لرؤيتي مجدّدا، لحضوري إلى جانبه، نداء عصي المقاومة. كُنت وَحيدةً على هذا الرصيف، لقد ذهب كلانا مع موعد لقاء نهار الغد، ليس ذلك المساء بكل تأكيد. فانتصَب أمامي. ارتميتُ بين الذراعين اللذين فتحهما لي. ضمّني إلى صدره، قبّلني. لم أعد وحيدة

على هذا الرصيف. بيده باقة أزهار. أعطاني الأزهار وقبّلني من جديد. كنت في منتهى السعادة. لَحْظةٌ تملّصت من الزمان، خارج الواقع، لم تترك على رصيف هذه المحطّة إلاّنا.

كنت وحيدةً على هذا الرصيف وأنتظر، أتمنى دون علمي بذلك. لو يَنبثق صلح بغتة أمامي ؟ لا تحدث المعجزة مرتين. الآن، إنّه زمن الحضور العاري، الحياة العارية. وتساءلْت : «هل أحسنتُ الفعل بمكالمته ؟ مثلما فعلت قبل قليل ؟» تكون صرختي التي رميتها نحوه قد زعزعت راحته، راحة دفع الثمن الغالي لكسبها، مقابل كفاح مرير. ولكن هو، هل طلب إذني ليدخل حياتي، ليمتلك جوارحي ؟ امتلكني بحُبّه كحيوان متوحّش. احتلّ كياني فأجبرت على العيش مع الحيوان المتوحّش إلى غاية آخر نفَس. فلا يزال الدمّ الذي تدفّق منا، هو وأنا، في هذه المعركة، يدخّن ويحمّر. مَجزَرة لا يبدو أنها على وشك النهاية. وهل لمثل هذه المجزرة نهاية ؟

أنا متأكّدة يا صلح أنك لم تتعلّم أن تعيش دون أن أكون دائما أمام عينيك. ولا أن يمتلئ قلبك بهذا الدم، بهذا اللهب.

يا له من خريف، يا حبيبي، يا له من خريف أرى قدومه !

أين أذهب ؟ إلى لقاء الغابة العميقة ؟... أتذكّر. عدت إلى جزيرة فيلجالا. سكنت أشجارها. بعد فترة. ليس في عيد القديس يوحنا. لم يكن يوجد إلا إيرو وتولي. ومعهما امرأة وحيدة لا أعرفها. لا يشرب إيرو إلا الحليب. من كان يتصوّر ذلك ؟ كما كان ينام في أغلب الوقت. كنا نحن النساء نأخذ

حماما ثمّ نتمدّد على الصخور تحت الشمس. أغمض عينيّ على غيوم فيلجالا، أسلّم جسدي للصخرة، وأطلب منها أن تتحوّل إلى يدين، وأن تكون يديّ صلح.

وبعد ذلك ذهبت للقاء الغابة العميقة، أمكنتنا المقدّسة... يا إلهي، ما هذا الحزن... لم تعد تلك التي عرفناها. كان يُمكن أن تتعرّف عليّ لحجم الذكرى التي تركناها هنا. لا، وجدت غرباء في مكانها. استقبلني غرباء، بوجه بارد، غير ودّي. برفقة صلح، كنت أرى هذه الأشجار ضخمة، جميلة، مليئة بالنُسغ، وهذه الأزهار : مليئة بالحيوية، ملوّنه بشكل متفرّد، عَطرة. أمّا النوارس...

أسمع لكس يناديني. ماذا أردت أن أقول بخصوص النوارس ؟ لقد نسيت. لم يعد لي رأس لأي شيء. في نهاية المطاف، أجد أنها هنا في أحسن حال، معلّقة، مثلما كانت في سماء فيلجالا.

أين أنتَ يا حبّي ؟ في أي ركن من العالم ؟ هل ذهبت ثانية إلى أمريكا ؟ أم أنك لا زلت في طور تحضير أمتعتك ؟ أنت ساكت. كما نوارس فيلجالا المتوقفة في وسط تحليق.

تلقّفتني الذكريات. تراجعَت الغابة التي بداخلي، احترقَت. أنا الذئبة، أبحث عن صلح الذئب. هو أيضا ذهب للبحث عني. أعرف ذلك، أكتشف آثاره في كل مكان، على جميع الأشياء. آثار مروره : في عمق هذه الغابة التي تعجّ بالأشباح، عند مذراة هذا الدرب – ولكن ليس هو. أتفاجأ دائما بوجودي في

المكان الذي لا يوجد فيه. مثلما يتفاجأ هو أيضا بوجوده في الثانية التي لست فيها. وإن حدث صدفة أنْ عرفت أين يوجد ؟ هذا هو لبّ السؤال.

وهذه النوافذ المشتعلة من الداخل، والتي أراها وأنا ممدّدة. هذه النار المشتعلة خلف كل واحدة. هذا الحريق. الساطع والمنسحب، بلا لهب، - ثابت. لماذا ؟

نخيّم في مريكور مثل الغجر، في غرفة واحدة، غير دافئة. نصمد بفضل الأغطية والملابس. من حسن حظنا أنّ لكس في قوة جيدة. لا يتألّم من البرد. لم يجهّز المطبخ بعد. يوجد موقد كحولي أغلّي الماء فوقه لرضّاعة الصغير وغسل مؤخّرته.

في هذه الساعة، ينام هادئا في سريره. يصعد لحاف الريش الذي يغطيه وينزل مثل شجني. توجد حياتي كلها داخل هذا السرير بأقدامه الأربعة وعجلاته الصغيرة. قد يدفعني هو، أو هذا السرير، نحو زاوية، فأذهب. سأنكمش إن تطلّب مني ذلك، سأحتل أقل مساحة ممكنة. المهم أن لا أزعج أحدا. لأستطيع تبادل بعض الكلمات فقط مع صلح. سأكون أسعد كائن على وجه الأرض. اختفى الانبهار من عينيه. أرى ذلك كما لو أنّي أراه في عينيّ. يا لهذه الخسارة ! أن نحب بعضنا بهذه القوة وندير ظهر بعضنا مثلما نفعل.

لا أتفقّد صندوق البريد.

رأيت حُلما غامضا هذه الليلة. ومع ذلك، كانت حلقة تتفرّد بدقّتها. أتاني صلح برسالة واختفى فجأة. كان طردا

ضخما نوعا ما، كشف عن فحواه بمجرّد أن فتحته : صور رائعة لأجساد عارية. كانت كلها لي. وضعني فعل صلح أمام بديهة. لم يعد بحاجة إليها فأرجعها لي. ولكنّي حينما دقّقت النظر في الصور، تفاجأت أنها ليست لي وإنما لتمثال رخامي. واستنتجت، دائما في منامي : «آه، طيّب، انتهى من رسم منظره، فوضعني بداخله».

حولتني إلى تمثال يا صلح، أليس هذا شيئا يوجع القلب ؟ وجع قد لا تتصوّر حجمه. يتدلى الذراعان على الجانبين مثل أجنحة مكسّرة. أتعرف بأنّي أعدت الكلمات نفسها التي تلفظت بها أمامي ذات يوم، ودون قصد مني.

الكلمات نفسها.

اقتربَت اللحظة التي سأعود فيها إلى المكان الذي أتيت منه. سأساعد أوليغ في ترتيب أمور البيت لتصبح قابلة للسكن. لكْسي، ما به ؟ يتنهّد في سريره كما لو أنه تنبأ بأفكاري. أيها الطفل، أية مجنونة هي أمّك !

نهاية سبتمبر، فصل الهجرات. إنّ رغبتي في الذهاب أكثر من أي وقت مضى. سنونو على حافة السقف، أصبر في انتظار الساعة. يضجر أوليغ كلما تطرقنا إلى الموضوع : «هل ستذهبين حقا مع صلح ؟»

مع أنه يعرف جوابي منذ أمد بعيد. ولكنّه لم يمنع نفسه من طرح السؤال من جديد، يحرق لسانه رغما عنه. مرّة أخرى، طمأنته :

«لا يربطني مشروعي بأحد. أنت تعرف ذلك. لقد حذّرتك في بداية زواجنا، في وقت لم أكن أعرف فيه صلْحْ، قلت لك أنه في يوم ما... يجب أنْ لا تَعتمد عليّ».

إنّها رغبة هدهدَت أيامي وليالي. كما رغبة الوصول إلى مكان ما، حطّ الرحال في مكان ما. الأرجوحة؛ تارة تنظر إلى السماء، تارة تنظر إلى الأرض. وتدور هذه الأشياء في رأسك. ينتابك الخوف ولكنك تشعر بسعادة، بخفَّة. إنّي دائمة البحث عن شيء ما، بلا كلل. ولكن هذا الشيء لا يوجد بسهولة، مثل الهدية التي أردت منحَها لصُلح. ربّما هي غير موجودة أصلا.

قبل قليل، دخلت غرفة. غرفتي ؟ فجأة، بدا لي أنّي غير موجودة بذاتي، أو أنّي موجودة بلا أنا. فجرفَني الإغراء. وددت لو أضع يدي على أداة. ولكن ما هي ؟ صوت يصدّني. فكّرت : على أداة واحدة فقط. فهربَت جميعُ الأدوات دون أن تغادر مكانها. هربَت مني. عجزْتُ عن تحويل بصري، عجزت عن مواجهة نظرة ما، عجزت عن التحرّك من مكاني، عجزت عن إطلاق صوت، عن القول، عن النداء. انهرتُ، تكسّرتُ إلى اثنين. صدمتُ الأرضية بركبتيّ. بقيت في مكاني، يلفُّني إحساسٌ بالضرر. نعم، بالضرر. رفعتُ عينيّ إلى السماء، أي إلى السقف، إلى لا شيء. عندئذ تركت نفسي أسقط، الوجه ضد البلاط. راقدةٌ يحميها موتُها. كيف نؤمن باللقاء سوى كلحظة آتية باستمرار ؟

حلم آخر. لا أفهم لماذا تأتيني الأحلام بكثرة. كنْتُ مَوجودةً في سيارة أقودها بنفسي، الشيء الذي لا أقدر عليه عند اليقظة. عندما وصلت إلى أحد أرصفة بوهجان –الميناء المركزي، مثلما نقول–، اصطدمت بشاحنة صغيرة. الحادث ليس خطيرا، ولكن وجَب عليّ التوقف. حينئذ انتبهت إلى أنّ السيارة ليسَت ملكي، بل إنها مِلك للرجل الجالس بجانبي. في ملامح ذلك الرجل، تعرّفت على زميل قديم لي بالثانوية. في تلك الفترة، كانت لي علاقة حبّ مع فتى، زميل دراسة آخر. كان مرافقي في السيارة ثخينا وخجولا، وأعرف أنه وقع في حبي أيضا. مع أنه لم يجرؤ على محادثتي ولو مرة واحدة خلال سنوات الدراسة الثمانية. كانت سمنته توحي لي بحنوّ صادق. ذات يوم، أفهمته أنّه لا يقل قيمة عن الفتيان الآخرين. أظن أنّ تلك الأقوال قد أجّجت حبّه لي. وها أنا معه في هذه الساعة، داخل سيارته الخاصة. لم ينطق بكلمة حول الحادث. بعد لحظات، وصلنا، معًا، إلى الشارع الذي ولدت فيه. صعدنا عند صديقة، اسمها لينا، والتي كانت هي أيضا زميلة لنا في الدراسة. كان طفل ينتظرنا في أعلى السلالم. قلت لرفيقي: «هذه ابنة لينا». ضغطت على الجرس، فتحَت لنا لينا بنفسها الباب، وابنتها في ذراعها. لا يمكن للطفل الذي رأيناه قبل قليل أن يكون ابنَها. تركنا لينا هناك ونزلنا. السلالم جدّ مظلمة. فحاول رفيقي القديم استغلال الفرصة ليقبّلني. انتابني تقزّز ولم أفكّر إلا في الهروب. واصلت الركض في الشارع، والتحقت عند زاويته بموقف الترامواي. في تلك اللحظة، تذكّرت

أنّي نسيت لكس خلفي. هكذا ، إنه هو ، ذلك الطفل الذي رأيته في سلالم العمارة. استحال عليّ العودة لأنّي سقطت وسط السكك الحديدية وعربة التراموای تنقضّ عليّ مسرعة.

لا توجد إلا الكوابيس لتملأ ليالي. أتساءل متى ستنتهي. أندهش من السهولة التي تعود بها جميع الأشياء إلى ذاتي، وتسجنني، وكم كنت أصغُر أمامها ، أنكمش، وأقاسي. أعيش منغلقة كما بداخل تابوت. إلى متى سيتواصل هذا يا ربّي ؟ أتحَمَّل قدَري دون همسة، مثلما ترى، أنت الذي لا تخفى عَنْك خافية. لأجل ابني. ولكن هل هو بحاجة ماسة إلى ذلك ؟ أحاول العيش ولكنّي لا أعرف كيف. أقبّل ذِكراك يا صُلْح.

أنا المُسَمَّى صُلْح

الحدود العارية

- 1 -

ذهبَت فايْنَة. قضينا الليلة في فندق، مرة أخرى، بحثنا عنه طويلا فوجدناه، غير بعيد عن منزلها. وجب علينا الاستيقاظ مبكرا، والاستعداد بسرعة، كان عليها السفر عند الفجر. فندق عادي جدا. هذا الفندق أكثر من غيره، وقد لاحظت فايْنَة ذلك وهي التي تستعيد عافيتها ببطء، مسترجعة قدراتها الذهنية. عبّرت عن ملاحظتها بمجرّد أنْ دخلنا غُرفتَنا وساحت بنظرتها الساهية على أزهار الورق المدهون الضخمة وابتهاجها الاصطناعي. قدّمَت ملاحظتَها كما لو أنها أُرغمت على ذلك؛ لم يكن لدينا الاختيار : هذه الأزهار والباقي، الذي ينسجم مع المنظر العام –أو لا شيء.

في الرابعة صباحا، خرجنا أمام موقف السيارات، ومَتجر كبير، واجهتنا صحراء من الخَرَسانة المسلّحة، شبَحية، وقد لفّها الضباب. لم يكن إحساسي سَيتَغيّر لو كنت أمام شاطئ بحر. إحساس مرجعه الضباب، وكذا تراصف المنازل التي تحيط هذه

المساحة الضخمة مثل واجهة بحرية، حيث لا يلمع أيّ نور في هذه الساعة الآيلة للزوال في أعماق لا يكون فيها الفجر إلا عتمة. ذهبت فايْنَة، انغلق باب دون أن يترك أصداء. الآن، أختَنق خلفَ هذا الباب. يتكسّر خلفه جسدي الليلي. مَخزن أسود من أجل أفكار سوداء. من أجل كلام يواصل سيره منفردا، ولا يتكلّم إلا عن العزلة. كلمات لا تتعب، لا ينضَب مَعينها. إذاً أعيدوا لي فاينة، ألغوا المسافة. تَحدّثوا عنها، تجاهلوا الليل فوق النوم، فوق أي موت، حبل من النار، مؤامرة. الحَقوا بها وأرجعوها لي. لا تتحدّثوا إلا عنها. ادعوا لي.

هي التي قالت عند مغادرتي :

«ادعو لي يا صلح».

لقد فارقَتْني في السرير حيث استيقظَت بفزع من الغفوة القصيرة التي غرقَت فيها بعد عناقنا. كنت مستيقظا، أراقب الفجر، وعينايّ تحدقان في الظلام؛ كانت الأذرع والسيقان متداخلة، وأنا استرق السمع إلى الصمت الذي حطّمه هدير السيارة المندفعة على الطريق السريع القريب، تلفّني موجة من الأفكار المأتمية، وقد أهملتنا أسوار الفندق المتشقّقة التي تكاد تنهار تحت المدّ العنيف، في مكان ما، وهو اللامكان. ولكن هذا الكلام سيأتي لاحقا. أما الآن، فلا تخرج أفكاري إلا لتتّجه نحوها، نحو المرأة التي تنام إلى جانبي، بتنفّسها الخافت. أتيت بها من الضفاف التي لجأت إليها لتفقد ذاتها، حيث ركضت لتمنح ذاتها كقربان. مسكتُها من يدها وقُدتُها

إلى غاية هنا. هل هي أكثر سعادة ؟ بَدأَت تَعرف من أنا ثانية، وتتعرّف على ما حولها، وتندهش. هل لهذه الأشياء قيمة ؟ ولكن السؤال الآن، السؤال الحقيقي : ماذا يمكنني أنْ أفعَل مَعها من اليوم فصاعدا ؟

كم مرّ من شهر – عشرة ؟ تنقَّلتُ إلى مريكور لرؤيتها في بيتها. كان كل شيء قد انتهى بيننا، أو بدا كذلك، حكاية قديمة. عادت منذ حوالي أربعة أو خمسة أسابيع، ربّما أكثر. لا أعرف. وتتابعت المكالمات الهاتفية، مُتباعدة في أوّل الأمر، غير منضبطة. ما كان لنا أن نفعل ذلك. ثمّ أصبحت يومية، بل تعدّدت في اليوم الواحد.

في الأخير، ذهبت.

لقد تركَت هناك، خلال غيابها، شيئا من ذاتها، كان الأعمى سيلاحظ ذلك : هكذا بدت لي في الغابة المجاورة للضاحية المقفرة، التي يتناثر بها الورق المقوى وعلب المصبّرات المهشّمة والقنينات الفارغة، حيث التحقْتُ بها بعدما تقدّمت من منزلها، هذا الذي اشترته مؤخرا، ومن عتبة الباب، سمعت زوجها يقول : «خرجت تسلي الطفل قليلا».

نعم، خرجَت لتجنّبنا لقاءً تحت هذا السقف ! خرجَت تتجوّل في تلك الغابة البئيسة التي تحيط حيَّها، ربّما كانت تترقّب ظهوري بين الفينة والأخرى. هي التي رأتني أولا، فجاءَت للقائي. كانت تدفع أمامَها عربةَ أطفال ذات عجلات مرتفعة. مشَت تدفع العربة. كانت ترسم تكشيرة، بدل الابتسامة. أما

نظرتها، فكانت كلها تساؤل، دموع رهينة. وما لفَت انتباهي : العينان. لقد فقدتا بريقهما المعتاد، فقدتا لونهما الإيراقي الذي كنت أهيم فيه. فرأيت فايْنَة كما لو أنها أخذت حمام الصودا. تحوّلت عيناها الخَضروان، ذلك الاخضرار اللامع، إلى شحوب مضطرب. أمام مَن أكون ؟ ماذا فعلتْ بسحر جمالها ؟ هذا السحر الذي لا يوجد إلا عندها.

بقينا جامدَين، الواحد مقابل الثاني. لا نعرف من أية كلمات نبدأ حديثنا، ولا من أية جُمل. بحثنا ولم تأتِ، لا الكلمات ولا الجمل. أجبِرَت تلك الجمل وتلك الكلمات الجاهَزة منذ أمد بعيد على الصمت، برغم تكرارنا لها دون كلل، وانتظارها بداخلنا طويلا. شَيءٌ يَدفع إلى اليأس.

مَشينا وسط الغابة الملوّثة، الهزيلة. كانت السماء الرمادية تمطر بنفس ذلك الخراب الذي يقطر من عيني فاينة. دفعنا العربة معا. كان الرضيع نائما. مشينا بخطوات وئيدة، حذرة. هل خشينا إيقاظ لكس، أم انفتاح الأرض تحت أقدامنا ؟ كانت فاينة مرهقة، وتتحدّث بصوت أكثر إرهاقا. وضعَت هذا الطفل بقرب زوجها، وتقول أنها تحبّني. كلّما تجرّأتُ على مواجهة نظرتها إلا وتملّصَت نظرتي. فكّرت : «من الأفضل أن تنشقّ الأرض تحت ثقل حيواتنا الثلاث». ها قد بدأت بوادر التشقّق تظهر على الشيء الذي لم يتمزّق بداخلي بعد.

عندما حانَت لحظة الافتراق، مدَّت نحوي نظرة غريق، أو نظرة مَن ارتكب فعلا نكيرا، بدأ يعي حجم خطورته، ومعرفة

طبيعته. وقفَت واجمة كما لو أنها فقدَت شيئا. ذكرى هذا الفعل ؟ وإنْ كان هذا الفعل هو الذي أدَّى إلى خسرانها ؟ وصلنا قرب منزلها. عند المدخل، تشبّثت نظرتها بي وحاولت أن تمنحني ابتسامة بئيسة. إنْ كانت هذه ابتسامة، فمعناه أنّ السماء الشتوية المكبلة بحشد من الغيوم تبتسم أيضا. متى انفتح الطريق الذي قادها إلى هنا ؟ وإلى أين ستذهب ؟ أسرّت لي به في تلك الابتسامة. قالت لي بأنها تواصل المشي. ولكنّي لم أفهم.

اليوم، تحيا من جديد. هل هي خارج الخطر ؟ أليسَت دائما شيئا هشّا وبئيسا ؟ مرآة يُضبّبها أدنى نفَس. إنّها تَعرف. قالت لي متوسّلة :

«ادعو لي».

وبعْد أنْ غرقَت في لحظة خفيفة من الحلم، تلفّظَت بهذا التوسّل :

«لوجه الربّ التي تحمله بداخلك».

بعد نصف ساعة، ذهبَت برفقة أوليغ ولَكْس. تكون قد عرفَت، هي التي تعرف دوما كل شيء. لم أفعل إلا هذا طوال الوقت القصير الذي نامَت فيه هذه الليلة : الدعاء بلا كلمات، بلا جمل، ولكن بتلك النداءات التي نطلب الشفقة لأولئك الذين أحببناهم ولا زلنا نحبّهم، في عذاب صامت وصبور.

أجبتها في ظلام تلك الغرفة المجهولة : «هذا ما كنت أفعله». ليس لإقناعها باهتمامي بها، ولكن لأنها طلبت مني ذلك. وقبّلتها على الخدّ.

لم تكن تطلب شفقتي. أعرفها. تحطّ روحَها، التي تحوّلت إلى ثقل لا تقدر على حمله، بين يديّ، ذلك أنّ التهديد باقٍ، وتحسّ به، وأنّ الظلمات والوحوش لا تتخلى بسهولة عن ضحاياها. مَن يَقدر على مواجهة الضرر الصاعد في هزيع الليل، خاصة إذا كان الليل بدوره سميكا وثقيلا، وعلى ضرر القيود العاصف، وعلى دخول المعركة وحيدا، بلا أدنى معين ؟

همَسَت قبل أن تنام داخل الغرفة العادية لذلك الفندق، موجّهة كلامها لي، ولكن لطمأنة نفسها أيضا :

«سَوف لن تتركني يا صلح. لن تفارقني».

كرّرت تلك الكلمات، مع أنها لا تؤكد شيئا، ولا تطالب بشيء. في تلك اللحظة، انكمشَت سعة حياتي في صمت فريد حينما واجهتني كي تحاسبني، دون أن أكون قد نادَيتها، ودون رغبة منّي. كيف أستطيع فراقك، فاينَة ؟

- 2 -

بدا لي أنّي لم يغمض لي جفن طوال الليل. ومع ذلك أتاني منام. خليط من الصور الخاطفة. برغم ذلك، برز مقطع منسجم. كنت أرانا نجري، فايْنَة وأنا، عاريَين تماما، ثمّ ولجنا مستودعا، رواق واسع بلا ملامح ولا حدود معلومة. لجأنا إليه

بسبب عُرينا، رغم أنه لم يكن يزعجنا كثيرا، بل اعتبرناه شيئا طبيعيا، وممتعا أيضا. ولكنه قد يزعج الآخرين. وهنا، جاءتني فكرة إلباس فاينة بجسدي كما لو أنه معطف، وبعد ذلك أطلب منها أن تذهب بدورها لتبحث عن رداء تغطيني به. لم يكن المكان، المستودع أو الرواق، الذي اختفينا بداخله، والذي استكشفته قبل ذلك، يوفّر أدنى وسيلة من هذا النوع. اندفعَت بكامل قوة ساقيها ولا أعرف ماذا حدث بعد ذلك. أنتظرها دائما هناك.

وجَب عليّ أن أحلم بها، ونحن ممدّدان جنبا إلى جنب في سرير واحد.

أكثر من هذا؛ أحسَسْت في تلك الدقيقة أنه لم يبق لي إلا أن أحلم بها وإنْ بكيفية يائسة. حدّثتني عن ذلك غريزتي، وسيؤكده المستقبل –أم لا.

يسافر ثلاثتهم بالسيارة، هي، أوليغ والطفل. منذ أيام قليلة، قدّمتُ لها ملاحظة :

«من المفروض أن أُسافِر بك إلى مكان ما، لمرّة واحدة على الأقل».

أجابت : «آه، نعم يا صلح ! هذا أكيد !»

وبعد تفكير، تساءلَت :

«ولكن كيف سأصل عند والديّ برفقتك ؟»

سكتَت. وحينما تكلّمت ثانية، غمغمَت لائمة :

«لا يريدان أن يعرفا شيئا عنك، ولا حتى إن كنت موجودا. ومع ذلك كم أريد النزول عندهما برفقتك كي أرى ملامح وجهيهما عند رؤيتك».

قبل كل هذا، كتبَت لي مرة من بوهجان، قبل مرضها ودخولها المستشفى: من الطبيعي أنّي وجدت صعوبة كبيرة لشرح مكالمتك الهاتفية، وكذا رسالتك المستعجلة. أراد والديّ معرفة «من هذا» برغم عقليتهما المتفتّحة. لا يتعلّق الأمر عندهما بفضول منحرف، أو بشيء عصي التصوّر، مثل المراقبة من أجل المنع. لا؛ يريدان تشكيل فكرة تساعدهما على «تصنيف» الناس. كي يدعِّما ثقتهما بنفسيهما. لقد استقبلا أصدقائي دوما، وأوَيا طويلا بعضا من صديقاتي. ينبغي الاعتراف بأن حالتك مختلفة. لا ينظران إلى شخصك، ولكنهما سيقبلان وضعا غير مقبول في نظرهما. وضْعٌ سيجعلهما شقيَين بلا شك. قَدِّر الأمرَ بنفسك، إنّهما شيخان، وكما جميع الشيوخ ينتابهما القلق من أجل لا شيء. وأنا أريد أن أجنِّبهما ذلك. اشْتَما رائحةَ شيء ما، وأظهرا ريبهما منها. طرحا عليّ أسئلة حولك، دون إلحاح. ولم أكن بحاجة ماسة إلى أن أحكي لهما جميع التفاصيل».

التصرّف اللاعقلاني؛ هذا هو دَيْدنها. منذ أن عرفتها، لم تتوقف عن الوقوع في شباك ريائها.

لم تندهش من أحد مثلما حدث لها أمام ردّ فعل والديها. ولم ترَ حرجا من إعادة ذكر وبكل براءة التبادل الذي أجرته مع أبيها ذات يوم.

عبّرت أمامه عن أسفها لأنّ عينيّ لكس لم تكونا باللون البني.

وها هو الأبُ يَصرخ مذعورا :

«ماذا تقولين ؟ عيون بنية مثل العرب واليهود !»

لمْ تحاكِم أباها على هذا الموقف بعد أن روَت لي المشهد. نقطة إيجابية لصالحها. ولكن شكا انتابني حول براءتها. وفيما كانت تكرّر عليّ أقوال والدها، لمعَت عيناها بفضول مُريب وهي تراقبني.

- 3 -

يهود، عرب... فايْنة، إنه صدى الذاكرة الجريحة التي لم تتوقّف عن وخزي. لحم أحمر يختلج، ما عساه يفعل ؟ شمس حارقة، ما عساه يحكي ؟ يهود، عرب. ماذا يمكنه أن يقول عن القانون المكتوب، وبعد ذلك، عن القانون غير المكتوب ؟ سيواصل، مثلما تواصل الكلمة المشئومة أيضا، أخذ كل طرف على انفراد، الاعتراف بالواحد دون الثاني، قانون مكتوب، قانون غير مكتوب، مع الاختراق دوما. وحده القانون، تضحية حالكة وبلا شفقة، يساوي نفسه، يساوي العفاريت التي يولّدها. يفرض بطريقته الخاصة تاريخا مماثلا عبر القرون، يتنكّر له،

يطمئنه، ثمّ يلغيه. هو، وهْم الدم الذي يحافظ على السرّ ويبدأ من حيث نسَيْت. دائما من لحظة نسياني. لم يغادر هذا الطوفان الشمسي، وهذه الجبال الصامدة، وهذه الأروقة الهوائية، وغفوة الهاوية. شيْءٌ جيّد المعرفة، ربّما كان تخمينا، ربّما جزءًا مُزوّرا لكل ما هو موجود في العالم، مع أنه لم يكن حاضرا دوما؛ بعد كل تكفير، بعد كل موت. كما في الأيام الخوالي.

كما في ذلك اليوم الذي ليس بالبعيد، حين أمروا بعضا من رجالنا بحمل جثمان إبراهيم إلى الخارج، قبل أن يختفوا عن المكان الذي سجنونا بداخله. كانت الساعة منتصف النهار تقريبا. فجأة، وجدنا أنفسنا منعزلين. ومع ذلك لم يجرؤ أحد على ارتخاء أسنانه : التفوّه بدعاء، بأنين. وراء الأسوار، تعالت صيحات، رفس أقدام، هدير محركات، زقزقة عصافير. وهنا لا شيء. كنّا حوالي ثلاثين نفْسا في تلك المدرسة التي حوّلوها إلى سجن، ولكن لا شيء تحرّك، أصيب الجميع بالشلل، الكلام، والنُفوس.

انتظرنا من جديد. سواء أردنا ذلك أم لا، كان كل واحد منا مشغولا بانتظاره. كم كان عمري آنذاك ؟ أحَد عشر سنة ؟ إثنا عشر ؟ كما الآخرين، كنت أنتظر على أحر من الجمر. في انتظار جلادينا، أقصد عودتهم، وأكيد أنّي انتظر أشياء أخرى. انتظارٌ يمدّد انتظارا سابقا. لماذا لم أكن ذلك الطفل، يا فاينة ؟

لم تكن لدينا وسيلة للتأكد من الوقت، ولكن مرت ساعات طويلة عصرت أحشاءنا قبل أن يظهر أحدهم، بوجه متشنّج مثل دأبهم عند الانتهاء من الأكل. عملاق، كل ما لديه شاحب : العين، البشرة، الشعر، لقد سبق أن تعرّفنا على هذا الشيطان.

تقدّم باتّجاهنا، ثمّ التحق به شركاؤه، وأمرنا بالوقوف. عندئذ، ارتعد جسمي. إنها النهاية بكل تأكيد. لم أرَ شيئا أفعله سوى الصراخ. أكلت أصابعي، أكلت صراخي. أجهشَت النساء بالبكاء، الشيء الذي فجّر ضُغاب الأطفال.

ألقيت نظرة إلى أمّي، نظرة واحدة فقط... بقي وجهُها المتغضّن كالصَّخر : لم يُدِر نحوي جموده الجثماني.

خلال تِلْك الأثناء، وصل الملازم. لم يكن مرتاحا في بذلته العسكرية، يقيس الهواء بنظارتيه السَوداوَين، فطردنا من سجننا بحركة يدٍ قلقة. غمغم مُزمجرا :

«أخرجوا من هنا ! أخرجوا من هنا حالا !»

كان يبدو لي مألوفا لديّ، إنّه يُشبه معلّمي.

ازدحمنا في الساحة المغروسة بأشجار الفلفل البرية. وحمّام النار الذي استقبلنا. منذ متى جُررنا إلى هنا ؟ منذ فجر هذا الصباح أم فجر البشرية ؟ وغياب الاندهاش. لم أندهش لكوني عشت الدهر كله في ذلك اليوم وذلك المكان، ولا لأنّي لم أمت. إحساسان واضحان، إحساسان غامضان.

أترنّح داخل هذا السعير، أبحث عن طريقي. يرفع بعضهم الأذرع لحماية عيونهم. بحركة آلية أقلّدهم. لا يرافق الحرية أدنى إحساس بالتحرّر. أُجْبِرنا على حمل الأجساد المعذّبة فوق النقالات قبل أنْ نُدفَع إلى الطريق. قطعنا أوّلا القرية الاستعمارية الغافية، وبعد ذلك آخر الكروم. ثمّ ها هي الأراضي الشاسعة الممتدّة إلى ما لانهاية : محروقة، تنبعث منها رائحة الأحجار المشوية والشيح البري. كنّا نتقدّم في فوضى كما القطيع المطارد. يحرسنا الآخرون دائما، السلاح باليد.

لا أثر لأي ظلال في أي مكان على هذا الخراب. إلى أيّ مَدى تتراجع الجبال، تتلوّن بالأزرق، ويتموّج الفضاء مثل مياه خلف ستائر هزيلة من الحرارة. مثل الماء، ولكنه يحرق البصر. لا يُذهلنا لمعان الدرب المنبسط أمام أبصارنا المذعورة.

قلبي مضطرب. ماذا تساوي حياةُ بشر في هذه الأيام وفي هذا البلد البعيد عن كل شيء كي يُؤخذ أمر ملازم مأخذ الجدّ ؟ يتقدّم موكبنا الهزيل، الممزّق، تسبقه النقّالات.

تسلّقنا ظهر قمّة جرداء وعرة، ومشينا على طول الذروة. ها قد وصلنا. كما تكسير رقبة، أوقف الآخرون الحركة، وحرّضوا الرجال والنساء والأطفال عبر صراخ صاخب على رمي الجثامين المنقولة. وكي يُنجَز العمل بسرعة، راحوا يَدكّون الصدور بفوهات بنادقهم. وماذا عسانا نفعل، دفقنا إخوتنا فوق ركام الغرانيت؛ أصدقاؤنا، جيراننا، أفاضلنا. لم تعد جثامينهم الشريرة تصلح إلاّ لتغذية بنات آوى.

فهمسْت، استمعْت إلى غمغمتي بأذنيّ، وأنا أقدّم يد العون : «لا تنخدعوا. يرقدون على هذه الأرض الحجرية القاسية، ولكنهم يوجدون في مكان آخر. رمَيناهم هنا، وسيواصلون وجودَهم أبعد من وجودنا وسيحرسون أفضل منا هذا البلد المرّ».

استأنفنا السير. ولكن شيئا بداخلي يؤكّد لي أنّ هذه المرّة سوف لن نذهب بعيدا، لقد قرُب حتفنا. أرانا نتمرّغ في الغبار تحت الحرارة الحارقة كما لو أنه حدث فعلا. بقيت النقالات الفارغة مصطفة على حافة الدرب. يقفز الشباب مثلي على الأحجار الساخنة كي يتجنبوا شوي أخامِص الأقدام. بدا الراشدون بوجوههم المغلقة كما لو أنّهم لا يرون شيئا. كنّا نُسرِع الخطى جميعا، بما في ذلك حراسنا، نركض تقريبا، ولا أحد يدرك السبب.

فجأة، ودون أي إنذار، انطلق تراشق الرصاص. اندلع كانفجار واحد متواصل. لا يحدث إلا ما هو واجب الحدوث. لم أتفاجأ، بل شعرت بالارتياح.

في لمح البصر، حدث تشتّت جنوني، القفزات غير المجدية، الهروب المكسّر فورا؛ ارتفعت الصيحات وحلّقت لفترة في التوهّج القريب والبعيد. قفزت من صخرة إلى أخرى، بابتهاج شرس. وحينما ساطني زنبور في الساق اليُسرى وأنا في ذروة الركض، ثمّ وخزني آخر في الكتف، فلم أكترث. فهمت ما حدث لي بعدما نمَت زهرة جليد في المكان الملسوع وما جاوره. فبدأت أضحك.

بدأت أضْحك عوَضَ أن يُغمى عليّ مثلما هو طبيعي في هذه الحالات. ليس جهرا، لا؛ وإنما بهدوء، أو بنوع من الصمت إن شئنا. إن الله معي. اشْشت، هذه الكلمة، لا ينبغي أن نتلفظ بها باستخفاف. الأصح أنّي في ظل نظرته. هكذا سأذهب لأنام قليلا، ثمّ سأستيقظ، وسأذهب للمطالبة بدمي، وبالدماء التي أراقوها. أينَما وقعت. سأُجَزِّئ نفسي إلى ألف شخص، وسيطالبون جميعا وبصوت واحد: «ردوا لنا الدماء التي أرقتموها!» آه، ليَحرقني دَمي الغالي لو... يتحوّل العالم إلى عاصفة نار مشلولة. أفتح عينيّ وأغمضهما. يختنق العالم الهائج.

أعادتني إلى وعيي تلك الزقزقات الحادة المحلقة في الفضاء. كم وقت دام الغياب؟ أنظر هنا وهناك. نفس الصخور الحارقة، ونفس الأرضية الجرداء، تمتد عبر المنحدر وتغرق السهل بتموّجاتها الرتيبة. في الفضاء، تدور شُعَل على نفسها، أرواح، أرواح خالصة. تتضاعف قوة الزقزقات. أفتح عينيّ على اتساعهما. بدا لي كما لو أنّ أيادٍ سوداء جامدة مفتوحة في أعلى السماء. تنفصل واحدة، بعيدًا، تقوم بحلقة واسعة، ثمّ تعود لتلتصق بالمكان الذي غادرته، في ذلك المكان بالضبط. من جديد، تعلّق تهديدها.

حصرتني رغبة شرسة لإنقاذ نفسي من هولها. أوطّد مرفقيّ على الأرض وأحاول رفع جسدي بطاقة اليأس؛ أبقى مسمّرا في مكاني، بلا أدنى نفس.

امتنعت عن الاستغاثة. لا أعرف من سيجيبني. فكيف يمكن للرحى التي يمرّر الألم عليها خناجره أن تستغيث ؟

وضعت أصابعي على جراحي وتفحصتها. عادت ثانية إلى تقطير الدم الدبق، نتيجة الجهود غير المجدية المبذولة للنهوض. تتزَوْبع فرق الذباب حولي بنهم. في الأفق الأزرق، تتراقص شياطين في أشكال مشاعل. من حين لآخر، تنزل بغتة وتلفني بمداعبات حارقة. فلم تنجُ أية قطعة من جسدي، إلى غاية الصدر، إلى غاية القلب، من الاحتراق.

في هذه اللحظة، يراقبونني. ليسوا إلا نظرة لاسعة. لا شيء خلفي، ولا أمامي. نظرة لا غير. ليُحدّقوا، لينظروا إلى أعمق أعماقي !

عندئذ بدأت أقتل. نزعت صمّام أمان القنبلة ورميتها، عمّرت سلاحا وأطلقت الرصاص، ليس بالشيء الصعب. إنه أبلد شيء يمكن أن نتعلّمه في الحياة. أسهل من شرب جرعة ماء. تلقينا هذا الانتقام بسبب إيواء قريتنا لبعض المجاهدين. التقطني مجاهدون آخرون في الليلة الموالية. تعويض. هكذا. لماذا ؟ أجهل السبب. لم يتخلَّ هؤلاء عن عنايتي. كان يوجد دائما أحدهم إلى جانبي للاهتمام بي في أسوإ الحالات –كمائن، اشتباكات.

حينما استرجعت عافيتي، أرادوا التخلص مني. ولكنّي بقيت. أرادوا تكويني. فتكفّلت بذلك وحدي. أمر حتمي، بلا انتظار.

ولم أفعل إلا هذا لفترة طويلة. كُنّا اثنَين مُكلفَين بالهجوم : أنا والصياد المجهول. إن أتتني فكرة بما ينبغي أنْ أفعله بصفة مستعجلة، فبفضله. إن خلّصت نفسي من المواقع السيئة، فبفَضله أيضا. كان يشدّ أزري. يوجّه بصري. لم يكن رجال الجبل الذين أصبحت الآن أقاسم معيشتهم يصدّقون التحوّل الهائل الذي حدث لي. مع أنهم كانوا جميعا شجعان ومدرّبين وقادرين. كانوا هكذا بالقدر الذي نريد. ومع ذلك، لم يصدّقوا. كنت سأقوم بتصفيتهم إنْ وجدت ضرورة لذلك.

سيكون عندي ما أحكيه لغسّالي حينما يضعني الموت بين يديه ! دورية. ذات يوم، هجمت على دورية. ليس أقل من خمسة إلى ستة رجال. وقع ذلك في ضاحية «الجوّ الجميل». في تلك الصبيحة، كنت عائدا من مهمة بالمدينة، فرأيتهم يدخلون الشارع الذي كنت فيه. قفزة إلى الوراء، فمنحني ركن فيللا حمايته. هل رأوني ؟ اشرأب عنقي بحذر، جازفت بنظرة. كانوا عصبيين. أكيد أنهم أحسوا بالخطر. أدخلت رأسي، التصقت بالجدار ولم أتحرّك. استرقت السمع. لا صوت باستثناء خفقان قلبي الثقيل. مع أنّهم يقتربون. إنهم يصلون. لي سمع حاد. تفصلنا عنهم حوالي عشرون خطوة، ليس أكثر. أكّد لي سمعي بأنهم توقّفوا. يراقبون، انتابهم الشكّ. الحرارة خانقة برغم قبّة الاخضرار التي تديرها الأشجار فوق الشارع. فجأة، سمعتهم يتبادلون الآراء. تتالى صمت طويل، وضد كل انتظار، ارتفعت أصواتهم أكثر. أدركت أنهم تجمّعوا –للاستشارة ؟ انفجرت قنبلتي وسَطهم.

لقي عدد منهم حتفه. الله وحده يعلم كم. في يوم آخر، قرّرت أن أبعث عاملا زراعيا وعائلته إلى جهنم. لماذا هذا بالضبط ؟ لأنّه يواصل كراء خدماته عند المعمِّر. لقد حذّرناه أكثر من مرّة. ومع ذلك، لم يتوقف عن العمل في تلك المزارع. عندئذ قمت بزيارة إلى بيته. عتّبت باب كوخه عند الغروب. تجري الأحداث دائما بسرعة مذهلة. كانت العائلة مجتمعة حول عشائها : الرجل، المرأة، الأولاد الثلاثة، الشيخ. اكتفوا بضوء بقية النهار. حافظوا على الهيئة التي فاجأتهم فيها. حينما رأوا الرشاش الموجّه إليهم، وقفوا دون كلمة. على كل حال، لم تكن كلمة واحدة قادرة على الخروج من حلوقهم. وحده الشيخ أطلق شهيقا بئيسا وهو يشير إلى الطبق المُهمَل. ولكن ماذا تساوي بكائيات شيخ خرف ؟ أما العامل الزراعي، فجحظت عيناه، أشبه بعيون العميان حينما يُبهرها الموت. تواصَل شهيق الشيخ عبر أنّات مقزّزة. أما الصغيرة التي لم تتجاوز السنتَين، فابتسمت لي. صرخْت، ركضْت باتجاه الباب وأنا أطلق الرصاص بلا تحديد.

بعد ذلك، أخذني جانبا أقدمُ واحد في الفرقة، وأمطرني بالأسئلة : ما هي الحرب ؟ ماذا نفعل داخلها، كيف يجب أن يكون سلوكنا ؟ ومسئولياتنا، والانضباط، وأشياء أخرى كثيرة... مرّت جميع الأسئلة. تفرّسته. لم تكن لديه إلا العينان بسواد عمق بئر كي يعبّر عن شيء ما، ولم يكن ذلك الشيء ذا أهمية تُذكَر.

لم أتمالك نفسي، فصرخت في وجهه :

«لا أبالي بكل هذه الأمور ! ما علينا إلا أن نقتل أكبر عدد ممكن ! بعد ذلك سنرى. تؤرّقون أنفسكم من أجل ترهّات. أنظروا إليهم، أولئك الذين يواجهونكم، هل ترونهم يتحرّجون ؟ »

كانوا رجالا حقيقيين، جنودا حقيقيين، مدرّبين. لا غبار عليهم. ولكنّي أصبحت عدوّهم اللدود ابتداءً من تلك اللحظة. عدوّ يخيفهم بكل تأكيد. كل الضرّ يأتي من هنا. تبخّرت آخر شكوكي حينما رأى بعض من رجالنا أنّ من واجبهم مراقبتي. أعترف أنّ هؤلاء لمْ يكونوا على خطأ كلية. كان يجب أن يرتعدوا على حياتهم، والآخرون أيضا. كان ذلك فوق طاقتي، لم أكن أقاوم رغبة إرسال الناس إلى رؤية إن كان هناك عالم أفضل. لم أكن أتردّد عن القيام بذلك. ولمَ التردّد، لم يكن هناك سبب، أدنى سبب. أصبحت نوعا من الكابوس المخيف، أصبحت كارثة حقيقية لأصدقائي.

ذات صباح، واجهني ملازمي بنظرة طويلة، حازمة، صارمة، قبل أن ينصحني بالهروب.

قلت : «إلى أين ؟ »

– إلى بيتك.

– أيّ بيتي هذا ؟ لمْ يَعُد عندي بيتٌ».

ومع ذلك أعطيت الريح لقدميّ دون أن أطلب الحساب. وصل الآخرون بمجرّد ابتعادي. كدت ألتقي بهم وجها لوجه. تجنّبت

الكارثة. ومع ذلك بعثوا لي برصاصات تغني على سمعي أغنيتهم الماكرة. إخوتي الأشقاء ! ربّما كانت مجرّد تسلية. لقد سبق أن جرّدوني من سلاحي. يهود، عرب : لماذا لم أكن ذلك الطفل، يا فاينة ؟...

- 4 -

حدث هذا أياما قليلة قبل ذهابها. سحَبَت خاتم زواجها خلسة مني، بالتدقيق خارج رؤيتي، وعوّضته في الأصبع نفسه بالخاتمين اللذين أهديتهما إياها، واحد منذ فترة طويلة : دائرة ذهبية تشدّ لؤلؤة رقيقة وتنسجم جيدا مع يدها الأنيقة، أناقة إلى حدّ الحذق؛ أما الآخر، فمنذ عهد قريب، أصغر، أغرب، خشن بثلاثة ألماس مقيّدة في كرة من البلاتين. هذا الخاتم، سبق أنْ حَملتْه طفلة صارت أمّي فيما بعد. وسجّلت أنه أبهج فاينة، وملأها بفرح غريب.

لم تبرز أيّ مظهر خاص في طريقة إقامة التبادل، ربّما لم تفكّر في الأمر قط. تصرّفت مع أوليغ، مثلما فعلت معي بعد ذلك، بحيث يبدو الأمر عاديا. لم أظهر اهتماما ما، وكذا فيما بعد. ذات مساء، داخل مطعم، شدّت خاتم زواجها بين أصابعها. وقد لاحظت ذلك الفعل. كانت تحاول مرارا، واهمة، بأن تدخله في منخرها، متذكرة، وربما لا، ممارسات وعادات بعض الشعوب. كان المطعم لا ينفتح إلا على أرصفة نهر السين؛ ديكور 1900، قطيفة حمراء، جوّ مبطّن، ملبّد. مفخرة ذلك العهد. ولكنها كانت تلعب بخاتم زواجها. ولمَ لا : كان

الطعام ممقوتا. يجب أن نشير، ولو مرورا، إلى أنّ هذا المكان يرتاده كتّاب مشهورون. قدّموا لنا حساء السمك باردا، ثمّ انتظرت فاينة سمك البوري مدّة نصف ساعة كاملة. فانشغلت بهذه التسلية. وحينما أتي النادل بالبوري، كان مشويا أكثر من اللازم، فصار لا يؤكل. أما أنا الذي انتظرت مباشرة شريحة لحم الخروف وصول البوري، فلم أجد أمامي إلا لحما باردا عصي المضغ. في المقابل، كان الحساب حارقا. هل يناقش الناس، هل يحتجون في مثل هذه الأماكن ؟ أكيد أنّهم كانوا سيحتقرونني إن تجرّأت وفعلت، كانت تلك السيّدة الآمرة الناهية، بعيونها الحارسة على الزبائن، ستسمعني بصراخها القوي ما يُنغّص عليّ أمسيتي. فلم يبق لي إلا تذكّر المكان جيدا وعدم وضع أقدامنا ثانية في هذه المصيدة الفاخرة.

ولكن عمّا كنت أتحدّث تدقيقا ؟ ليس عن هذا، لا... ما كنت أريد قوله، آه، تذكّرت : في تلك اللحظة، لم أنوي تفحّص أصابع فاينة، برغم أنّي أعجب وأقدّس يديها؛ **يبدو كما لو أنهما تخلقان الشيء الذي تنحطان عليه**. وكان الحديث أيضا يتدحرج فوق الخطط التي تهيّئها للشهور المقبلة، فترة إقامتها هناك، في بلدها. **كانت يداها كما الطيور الحية**. فأعادت تهيئة هذا الزمن نظرا للدروس التي ستعطيها هناك، ومكانة لكس في حياتها، وبحوثها الخاصة، إلخ. حينما أنظر **إلى يديها، تنتابني سعادة لا تُحد. ومعها أيضا، خشية لا تُحَد. فقط لأنّي أفكّر أن البرد سيوجعهما. تغمرني دائما رغبة بأخذهما بين يديّ لتدفئتهما**. كانت تتكلّم، وتعبث

بخاتم زواجها الذي أصبح بلا فائدة. لحظتها لم أنتبه، ولم ألاحظ أنّ الخاتمين اللذين أهديتهما لها يستقران في بِنْصرها مكان خاتم زواجها إلا صبيحة نهار الغد، في الفندق الذي قضينا فيه ليلتنا. هكذا، فبرغم اعتقادي أني مراقب جيد، فلن أعرف أبدا متى وقع الاستبدال.

كانت فاينة منتشية برغبتها في السعادة. وفي تلك الليلة، لم تكن إلا كذلك. أما أنا، فتمحور تفكيري حول : «هل ستعود إلى سابق عهدها ؟ مثل سابق عهدها، إلهي، استجِب... ؟»

تعرّت بمساعدتي واتّخذت مكانها في السرير. لم تتمدّد، بل جلست على عقبيها ومالت نحوي، ثمّ بقيَت تتأملني بصمت. كانت ملامح وجهها عصية القراءة، فبدَت كما لو أنّها مستغرقة في كل ما يختلج بداخلها، أو خارجها. مكثت على تلك الوضعية بعض الوقت، فواصلت تحضنني بنظرتها الودودة، يداها لاصقتان على فخذيها. انتبهت إلى الأثر الذي تركته في نفسي تلك العناية الصامتة. ثمّ لا شيء. لم يحدث شيء غير تموّج مُمتع. كان التيار بجلاله يغمرني ويجرفني في آن واحد. ورأيت نفسي بعيدا، بعيدا جدا عن المكان الذي أتواجد فيه، عن هذه الغرفة، عن هذه النواحي. خيّمت أجمات وأشجار على المكان. رائحة السرخس، يوم ندركه عبر جذوع الأشجار، ألف صوت سري يحدّثني. ولكن سمعي كان منساقا خلف أصوات لم تدخل التاريخ بعد. لم تربك ثقتي بنفسي. كنت أستمع وأنتظر. ستصل الدقيقة –لغز هي أيضا إن حدثت– التي

سأتعرّف فيها عمّا يحدث في الغابة الأصلية. اليقين بالنسبة لي : فاينة هي التي نقلتني إلى هنا؛ هل كانت هي اللغز ؟ هل تخفي اللغز بداخلها ؟ أم أنها تطارده، تصيده، تائهة، في الأعماق الغابية. تصيده تائهة، وأحيانا صائحة. كنت لا أزال أطرح السؤال. وإنْ لم يأتِها الإلهام، وإنْ تطلب الأمر أكثر من هذا ؟ وإنْ كنت في المقابل أنا الذي سأجد : ماذا سأجد ؟ لم أتمكن من مقاومة ضغط مباغت للقلب. كان هذا سيخبرني. لقد مُنحت مهلة قد أعثر فيها عن الجواب، وإنْ لم تدم إلا بعض الثواني. فكّرت : «**جوابٌ ما**، مهما كان طبعه». ولكن المُهلة انقضَت ولا شيء حدث». لا محدودة، خالدة تلك الثواني التي لم تسعفني على إيجاد جواب وإن كان غامضا، واسترجاع عهد، ماضٍ بكامله، ليس لأننا نسيناه، وإنما لأنه اخترق الأفق ومرّ إلى الجهة الأخرى. لا محدودة، خالدة تلك الثواني التي لم أحسن استخدامها، وقد منحتني فرصة تجاوز اللحظة التي رهنت فيها إيماني وجنوني الخاص. لقد أعادَت إنتاج ما لم أتصوّر أنه سينتج مرة أخرى. **في لمح البصر، استرجعت عيناها ذلك الاخضرار الذي يطبعهما مذ عرفتها أوّل مرة.** لقد حقّقَت هذه الليلة حُلمَ أيامي، ولكني تركت اللحظة تتملص مني. لم أتجاوز العتبة التي فجّرت الخطوة من اللعنة إلى الغفران. أغمَضْت عينيّ قبل ذلك. إنّ عينَيها اللتين أغطس فيهما بصري، حيث أراني خفيفا، كما لو أني خارج الزمان، أرى أيضا كل حدقة تتمدّد، تتوسّع : البهيمة المتوحشة التي

تهيئ عينيها لاستقبال عيني بشرية، فخفضْت جفنيّ. أحدثتُ الظلام حولي.

وقد حدث في الليلة الأخرى، الأخيرة، التي قضيناها في فندق اللامكان؛ ينتصب مقابل محل تجاري كبير، ومواقف سيارات مهملة، ميدان يتخذ منظر شبه شاطئ عند الفجر وضبابه، عندئذ، قالت فاينة، مواصلة محادثة سابقة، قبل أربع أو خمس ساعات فقط :

«إذا اعتنقتُ دينَك، يا صلح، أريد اتّخاذ اسم فايْنة».

ومن جديد، ذلك الجرح في القلب. تريد أن تُسمَّى فاينة. تريد أن تسمّى بالاسم الذي تحمله. بدأت أضحك في الظلام.

«اسمُك فاينة قبل اليوم».

اعترفت بعد إجابتي البليدة، وقالت متأسفة :

«صحيح، اسمي فاينة».

وبعد هذا، غرقَت في النوم. في تلك اللحظة، لم أفهم إلا في تلك اللحظة، ما أرادت أن تقوله لي.

كم ساعة نمنا فيها ؟ اثنتان، ثلاثة، ليس أكثر. ومع ذلك، كان يرافقنا إحساس يقظ، ونحن غائبان عن أنفسنا، نائمان، ينبئنا بقرب بعضنا من بعض، الواحد بقرب حرارة ونفس وأفكار وأحلام الآخر، وإلى غاية لاوعينا، إحساس يُشعرنا بالافتراق الحتمي. هذا الإحساس الذي لم يخيّب الظن أبدا. لم أفهم إلا في تلك اللحظة هذا الشيء الغامض الذي تبادر إلى ذهنها

والذي أرادت أن توصله إليّ. وضعَت أملها في ديني، وتمنَّت الغفران. كان هذا الأمل موضوعها، أو دعاءها الليلي. امتنعْت عن إجابتها، عن إعطائها ولو ظل جواب. كما امتنعت عن القول بأن لها اسما، اسما آخر. ذهبت، ولا تعرف اسمها الجديد، اسمها الحقيقي الآن. هل ستعرفه يوماً ؟

القناع المبتَسِم

- 1 -

التقَيتُها بَعْد حوالي ثلاثة أسابيع من وصولها، في هذه الغابة البئيسة، الغاصة بالحطام، في مريكور. وبعد ذلك، عدت لرؤيتها بعد يومين. وجدت امرأة تخيف بمنظرها. كان أول رد فعلي أن أعود أدراجي، أن أهرب، أختفي. ولا أرى هذا. كان وجهها قناع طبشور. جسدها، ذلك الجسد الرشيق : مثقل، مترهل على نفسه. ومع ذلك بقيْت. لم تتحرّك من كرسيها. التصقت ابتسامة بالقناع، أبشع من غياب الابتسامة. لم تحرّك ساكنا، لم تنبس ببنت شفة. لم تكن قادرة لا على هذا، ولا على ذاك. لم تكن قادرة على أي تفكير كذلك ويبدو أنها لا تشعر بأيّ إحساس. هل تعرف على الأقل أنّي هنا، قدّامها ؟ ليس أكيدا.

في المقابل، لم تكن موجودة بالنسبة لي. لم أتعرّف عليها. ليست فايْنَة التي عرفتها.

حدث هناك، في بلادها، ذات يوم شتوي. كان الثلج قد محا الريف المجاور للمنزل. ومع ذلك خرجنا، هي وأنا، لنتيه. كان آخرون غيرنا يجوبون ذلك البياض الممتد، راجلين أو فوق زلاّجات، كما البهلوانيين. في لحظة ما، تقاطعنا مع أحد أولئك الأشباح. أذهلني غياب التعبير الذي وجدته على ملامحه، فألهمني هذا التعليق :

«يحمل وجهه الوحيد مثلما يُحمل القناع. أمر غريب. من يختفي خلفه ؟»

وهنا سألت فاينَة :

«أريني وجهك».

هي، تجاهلت سؤالي، وعوض الالتفات نحوي، سارعت إلى غطس وجهها في ذلك الثلج الذي تطأه أقدامنا. ثمّ، أشارت بأصبعها إلى البصمة التي تركتها، ابتسمت –لم أكن أرى ابتسامتها، كانت في صوتها– وأخيرا قالت دون أن تنظر إليّ :

«وجهي. ها هو».

إنها تحمله اليوم، في مريكور، على سطح بشرتها، هذا القناع الثلجي، ذا العينين المغمضتين والفم المُنْفَغِر. نفس البشرة الثلجية المُحثَّرة، ملوّثة بنفس الفراغ تحت واجهة القناع المخفية. لقد حضّرته هناك مثلما نحضّر دسيسة ما. ضد نفسها. دسيسة دبّرتها ضد نفسها.

مسكتُ يديها. مرّت الثواني. لا تظهر أدنى علامة اهتمام بأيٍّ شيء. كانت العينان فارغتَين في انفتاحهما، مزجّجتين. ولم يتحرّك لها جفن. غياب الإحساس، اللامبالاة الهادئة، بلا علاج. خاطرت يائسا ببعض المُزح. تزلّجت فوق الرخام قبل أن تعود إلى العدم الذي ما كان لها أن تغادره. يداي في يديّ هذه المرأة التي أحبّها وهي متكوّمة بكل ثقلها على كرسيها مثل تمثال سيئ الصنع. ستمكث على هذه الهيئة طوال الساعات، بل طوال اليوم.

إلاّ عندما... نعم، إلاّ في تلك اللحظة التي أسالت نحوي، بمواربة، تلك النظرة الملفوفة بلمعان أزرق خاص، بريق غريب كنت أتوقّع رؤيته في عينيها، عيني بشر. وفي تلك اللحظة، غمغمت :

«أنظر كيف أصبحْت».

أنا متأكّد أنها نطقت بهذه الكلمات. ومتأكّد أيضا أنها لم تتَّهم ولم تشتكِ. لم تعد مهتمة بجلب شفقة الغير. لم يعد بداخلها مكان لتلقّي المواساة. لم تكن تنتظر أن تُنقَذ من شيء ما، لأنّ لا أحد، ربّما ربّها أيضا، سوف لن يجد ما يغفر لها.

نطقت فاينة هذه الكلمات بصوت رمادي تفتّت بسرعة، قبل أن تسقط ثانية في وهنها، في صمتها. إنها بعيدة عن كل شيء، أبعد عن أي مكان وصلت إليه قبل اليوم. أكيد أنها لا تعي بأنّها كلمتني، ولا أنّي أوجد بجانبها. بقيَت جالسة، مُثقلة على كرسيها، منغلقة على نفسها، ولم أحس بروحي إلا

سقوطا وانهيارا. مع أنّي كنت أقل جمودا، أقل صمتا، وأطلق بداخلي نداء استغاثة. ربّما كانت هي أيضا تطلق الصرخة ذاتها، صرخة تخنقها أسوار سجنها، ولكنها تتعنّت على إطلاقها، كي تخلّص العالم من ثقل حضورها ومن ضرّ مسها، وهي الصرخة التي تستعجل حدوث يوم الحساب.

فبدأت أذهب عندها يوما بعد يوم، ومنذ الصباح. لأكون أنيسا لها. نعم، أنيسا لها فقط. يَحدُث لها أحيانا أن تُظهر بعض المخاوف المباغتة. لا تحب مثلا أنْ تُترَك وحيدة مع لكس الذي لم تعد تتحمّل رؤيته. في واقع الحال، لم نتمكن، أوليغ وأنا، من جعلها تعبّر عما تحسّ به. لم يكن أوليغ يستطيع التغيّب عن عمله، يخرج مبكّرا ويقضي يومه هناك. على كل حال، رفضت فاينة الاعتراف بوجوده، وقد أدرك ذلك جيدا. هكذا، عندما أصل، يكون في أغلب الأحيان قد ذهب مع الطفل ليأخذه إلى الحضانة، أو عند أهله الذين يقطنون في ضاحية أخرى لم أعرف اسمها. لم تعد فاينة تهتم بشيء. إنها ليست قادرة. لا تنظيف ولا طبخ، هي التي كانت تجد متعة كبيرة وتحسن العناية ببيتها –وهو اليوم مُهمَل– حيث تشتطّ غضبا عندما تلاحظ أدنى غبار على الأثاث. كان هذا قبل مرضها. أمّا اليوم، فأجدها كل صباح مثلما تركتها بالأمس، جالسة على نفس الكرسي.

ينتظرني التمثال نفسه، جالسا على الكرسي نفسه. يكون للشبح حضور أكثر، يكون قد ملأ المكان أكثر منها. في بيت

أضحى فجأة غريبا عني، حيث تبدو لي الأشياء عدوانية : الأثاث، الأدوات، اللوحات المعلقة بالجدران. تذبل الأزهار التي آتي بها هي أيضا بمجرّد وضعها في مزهريتها كما لو أنّها تختنق من نقص الهواء.

أعود يوما بعد يوم. أقوم بقليل من التنظيف، أغسل الأواني، أكنس، أنظّم. أحيانا، أمرّر المنشفة على البلاط. وبعد ذلك، أقود فايْنَة إلى الحديقة، إذا سمح الجوّ بذلك. أهيّئ لها كرسيا طويلا وأساعدها على التمدّد فوقه، ثمّ أغطي ركبتيها بمعطف. كان مكاننا المفضّل تَحت شجرةِ تفاح، على طرف من العشب : هي تحت الشمس، وأنا الذي أحب الظل، أقابلها. ودون أن أعرف إنْ كانت تسمعني، أحدّثها عن... أي شيء، كل ما تبادر إلى ذهني. في بعض الأيام، أقرأ لها صفحات كاملة فيما كانت هي مغمضة العينين، كما لو أنها نائمة. أعرف أنها لا تنام. ولكن هل تمنحني عنايتها ؟ لم يكن ذلك ليزعجها على كل حال. وكان هذا كافٍ في حدّ ذاته بالنسبة لي. وأواصل قراءتي بنبرة مماثلة، ولا أرفعُ بصري نحوها إلا من حين لآخر. وعلى وجهها قناع الجَسارة نفسه. كانت الشمس تظهر وتختفي، وتسري ظلالا خافتة على وجهها، الذي يبدو كما لو أنه يتحرّك، يعود إلى الحياة ثانية.

ولكن الوهم لا يدوم.

كانت المحادثة بيننا غير معقولة. خلال تلك اللحظات، يحدث لها أن ترخي جفنيها. لم تكن عيناها إلا مثل هاوية

فاغرة، تمصّ جميع الأشياء وتبتلعها. هذا ما يُزعِجني أكثر. في الأخير، ينفد صبري، فأمسك رأسها بين يديّ، أغطس بصري في عمق عينيها، جبهتي تلامس جبهتها، أسبرهما، ألج بنفسي داخل الفضاء المعذّب الذي يجمعنا ويفرّقنا معا، يطرد كل واحد إلى الضفة المقابلة، نحو عزلته، نحو يأسه. ثَوانٍ من الشقاء الغريب حيث تستجيب أحيانا لنظراتي اليائسة، خلسة، وتتلفظّ بكلمة، بكلمتين، لا أسمعها جيدا كي أدرك معناها، قبل أن تسحب رأسها في حركة تراجع ضعيفة. ماذا تريد أن تقول لي هذه الأصوات الشبحية ؟ أنّها لا تستطيع العودة من المكان الذي لجأت إليه، بأنّ حنينا لا يُشفى يشدّها هناك ؟ أو أنه قدر حتمي لا تعرف كنهه يقودها إلى ذلك التيه ؟

أستأنف قراءتي المتوقفة أو أندفع في تلك الحكايات التي تخترع نفسها بنفسها تباعا لمرور أحداثها.

اتّخذت هذا اليوم هيئة مهرّج أسواقنا وبدأت بمناداة فاينة مباشرة :

«استمعي قليلا إلى الحكاية العجيبة التي سأرويها لك. يا لها من قصة غريبة الأطوار، يا صديقتي ! قصة فيها العجب العجاب، كانت نهايتها ستكون مأساويةً. ولكن رعاية السماء شاءت غير ذلك.

كان ديدي طفلا كبيرا، بل أقول أنه فتى يافع. ذات يوم، حدث الذي كان يجب أن يحدث : بدأت لحيته تنمو بذقنه.

ريشة من هنا، ريشتان من هناك، ثلاثة من هنالك... يا عجبا، إنها لحية ريش !

ماذا، كيف ؟ تسارع الناس حول ديدي، يؤجّجهم الفضول. ينظرون، يلمسون، يجذبون. إنّها صرخة واحدة :

« يا للشيطان الأخرَس، له لحية ريش ! »

كان ديدي أوّل من أصابه الذهول. ذهول وشقاء. ابتداءً من ذلك اليوم، أينما ذهب، يلتفت الرجال والنساء عند مروره، يتفحصونه غير مصدّقين عيونهم، ثمّ ينفجرون مقهقهين.

أما الأطفال، الصغار والكبار، فحدث ولا حرج. فمجرّد أن يضع ديدي أنفه خارج البيت حتى يبدأون بالصراخ :

« لحية الريش ! لحية الريش ! »

لم يسلم ديدي من أية سخرية. يغضب، يتشاجر أحيانا مع واحد أو أكثر من هؤلاء الأولاد المشاغبين. ولكنه لو استطاع لدخل تحت الأرض. هو الطفل الحيوي، المبتسم دوما، ها هو يتحوّل إلى شخص عبوس، حزين وجافل. لم تبق له إلا فكرة واحدة تدور في رأسه بلا كلل، وأظن أنك تعرفين ما هي. أن يتخلّص بأسرع وقت ممكن من تلك الزينة المزعجة ! للأسف الشديد، كيف ؟ القول أسهل من الفعل. لقد حلّق ذقنه مرات عديدة ولم ينفعه في شيء. عادت لحية الريش إلى النمو بسرعة أكبر. يا لها من لحية الشقاء !

سوف لن يتمكن من التخلص من هذا الشيء البشع المثير للسخرية ؟ ما العمل ؟

جاءته فكرة ملهمة. لماذا لا يستشير رجال العلم ؟

فركض دون تلكؤ عند أحدهم، أشهرهم.

«لماذا تنمو لحيتي ريشا ؟»

انتصب العالم الجليل عند رؤيته للظاهرة الغريبة وسقط جالسا على مقعده. فغر فاه، ثمّ أغلقه دون أن ينطق بكلمة.

بعد ذلك، راح يبحث عن نظاراته. أين هي تلك النظارات ؟ كانت مركبة على أنفه. ثمّ تظاهر بتنظيم مكتبه، ولكن الفوضى كانت غائبة من على مكتبه. ثمّ أمسك معطفه من الأمام، فيما كان عليه أن يمسكه من الخلف.

وبعد أن قام بجميع هذه الحركات، سعل مرتين على التوالي، واسترسل في شروحات عالمة كادت تفجّر رأس ديدي البسيط، قبل أن يفرّ راكضا أسرع من الحصان.

يمر الوقت. ولا تزال الريشات اللعينة تزيّن ذقن ديدي المسكين. ثمّ سمع عن وجود شيخ عالم بأسرار الكون.

«ولكن حذار ! الشيخ ماكر جدا. يمكنه أن ينفعك بعلمه، كما يمكن أن يوقع بك في لعبة من ألاعيبه الغريبة. يجب أن تكون مستعدا لكل المفاجآت. اذهَب، ولن تخسر شيئا على كل حال».

إن الأخبار الأولية جعلته يتردّد كثيرا. ولكن من سينقذه من شقائه ؟ لقد سئم من حمل تلك اللحية المشئومة.

في نهاية المطاف، لملم شجاعته بكلتا يديه وذهب يواجه الشيخ الرهيب.

«لماذا تنمو لحيتي ريشا ؟»

سؤال مقابل سؤال، سأله الشيخ بصوت صارّ، مثل منشار يُمرّر على أعصابك :

«ماذا فعلت عندما كنت صغيرا ؟»

أرهب السؤال ديدي، فاجتهد يتذكّر. ليس من السهولة استرجاع الماضي. آه، نعم : كان يحب الركض في الحقول، يتذكّر تلك السباقات جيدا. مهما حاولت أمّه لتبقيه في البيت، كان دائما يتملص من مراقبتها، وَهُبْ، إلى اللقاء، ها هو يقفز في الحقول ليلتحق بأصدقائه المتشَيْطنين أكثر منه. كانوا يتفقدون أعشاش الطيور، يقفزون فوق الأسيجة، يخطفون الفواكه من الحدائق وإن كانت غير ناضجة، يستحمون في البركة الكبيرة مع خطورة الغرق. كان ديدي يعود إلى البيت بخدوش دامية في الوجه واليدين، وأحيانا بسروال ممزّق. ليست هذه الأمور غريبة ولا مدهشة مع جميع تلك الشوكات التي توخزهم، والأغصان التي تسوط وجوههم، والأحراش ونباتات القرّاص التي تلسع سيقانهم. كانت أمّه توبّخه. ولكن الشقي كان يحسن التودّد والتمَسْكن بحيث لا تجد الأمّ في كل مرة الشجاعة الكافية لعقابه. يقسم أنه لن يكرّر فعله أبدا. حينئذ تتسامح معه.

ويش ويش ! من جديد، نهار الغد، يركض نحو الحقول. ذات مرّة، أراد أن يظهر لأصحابه مهارته في الرمي، فطفق يطلق الأحجار بقذّافَته اليدوية على دجاجة. اتّضح أنه قذّاف ماهر : مسّ الدجاجة، فسقطت ميّتة. خوفا من غضب صاحبتها، أسرع الأطفال إلى دفن الحيوان المسكين. ثمّ اختفوا من المكان، لا من رأى، ولا من سمع. عند الغروب، خرجت صاحبة الدجاجة تبحث عن كنزها. نادتها بصوت حنون، كالعادة، ثمّ رفعت صوتها، ثمّ صرخت. بلا جدوى. هدّدت. شكّت بأنّ أمرا مريبا قد حدث. اشتكت لدى الأمهات. طبعا، لا أحد من الأطفال يعرف شيئا مما حدث للدجاجة. ثمّ إنّ...

«ماذا فعلت عندما كنت صغيرا ؟»

انتفض ديدي عندما سمع صوت الشيخ الحاد، فلم يجد من جواب إلا الاعتراف :

«مع أطفال آخرين، قتلت دجاجة الجارة».

من عينه الوحيدة، ألقى الشيخ القصير غَمْزة عَين وحيدة لديدي.

«اذهَب عندها وقل لها الحقيقة».

تلقى ديدي الاقتراح بهلع. ومع ذلك زار تلك السيّدة بلا حماس، واعترف بذنبه وأراد أن يطلب منها الصفح. ولكن السيّدة لم ترَ المسألة من هذه الزاوية برغم مرور السنين، فلا يزال الغضب يملأ كيانها.

«آه، هذا أنت أيها الشقي !»

فلم تترك صاحبة الدجاجة اسم طائر إلا ووصفت به ديدي. ومع ذلك، كان ريش لحية ديدي يتطاير كلما زادت المرأة اسما في قائمة هذه الأوصاف غير المادحة بالمرة.

- 2 -

حينما كنت أقصّ حكاية لفايْنَة، ما يتبادر إلى ذهني أنني أجد نفسي أكثر حرية لأفكّر في عملي. وفي الوقت الذي تتابع الحكاية سيرها، تنعكس أمام عينيّ، أو لأكون أكثر دقّة، ترتسم فيّ كما على نصب رخامي متتاليات من الأعداد، والأحرف، والدلالات. متتاليات مزيّفة في بادئ الأمر، ولكنّي كنت أعرف مسبقا أنها لن تبقى على زيفها طويلا وأنّ معناها، حتى وإن لم يُصغ بجلاء، سيتضح لي قريبا. تتواصل العملية، يبدو لي أنّ النصب الرخامي يحي بحياة فردية، يتحوّل دون أن يفقد طبيعته، ليصبح خفيفا إلى حدّ الشفافية. كان يكفيني أن تواصل تلك الصيغ، برغم غرابتها، تسجيل نفسها ومنح الحياة لتلك اللوحة. تواصل تدحرجها، تسري في تقدّم هادئ محملة بهذا المعنى الذي يتشكّل عبر أمل يتأكّد رويدا رويدا.

كان يَهمّني، برغم تجندي في دورية غير مكتملة، أن يبقى المعنى في مستواه الإيحائي. يَهمُّني أنْ يبقى متألما في ريب من معناه. حينئذ، وفي الوقت الذي أحسّ أنّ جميع هذه الدلالات تكاد ألغازها تلامسني، وعلى وشك البوح بمكنوناتها، تجتمع في معادلات عظيمة، بل وفي تقزّح لانهائي. معادلات،

تقزّحات تمليها لغة الرياضيات التي تمتلك العلم والسلطة. رمز الإيجاز، أحجار النرد للعب مع المجهول، همس الواقع. عندئذ، يحدث اللقاء المنتظر.

لا أعرف شيئا، فاينة، لا أعرف إلا الذي أراه، وأين وصلتِ، وأين وصلنا. هل يمكن للحب أن يُسعِف الجنون ؟ سرقتِ نفسك بنفسك لتمنَحيني كل شيء، خرّبتِ نفسكِ لتملئيني. لماذا ؟ وأفلست نفسكِ ؟ لماذا ؟ أصبحتِ فقيرة، ولم تغتني إلا بجنونك. أما أشياؤك الجميلة، فتحافظين عليها جيدا. غير قابلة للتنازل ولا للانتقال. لن تعرفي كيف تمنحينها لي كإضافة. تحافظين عليها.

لمْ تعودي تتعرّفين على نفسك، ولا تفهمين شيئا مما أقوله لكِ. وأنا أيضا لا أتعرّف عليك ولا أفهم شيئا مما أصبحتِ. لقد مررتِ إلى الضفة الأخرى وأغلقتِ الباب خلفك، تمنعين عني الدخول.

ماذا يَجب عليّ أنْ أفعله ؟ هل هُمِّشتِ إلى هذه الزاوية لأنّك أحببْت شخصا لا يعرف أحدٌ من أين انبثق، لأنّك اخترقت قوانين قديمة، وأهنتِ ربّا غيورا يأخذ ثأره في هذه الساعة ؟ ربّما تعلّق الأمر بأشياء أَخرى.

فلتكن إمكانية الإصلاح على الأقل. ولن يتكلّم إلا صوت الضياع هذا، يصرخ ويجبرك على الصمت، هذا الصراخ الذي يمتلئ به صمتك. سيكون الأمر ظلما مجحفا. ماذا يجب أن

أفعل ؟ أن ألعن روحي أيضا ؟ ولكنّي ألا أعيش شقاء اللعنة بضياعك ؟

حدث ذلك في بوهجان. في بلدها، في مدينتها. حدث ذلك في حياة أخرى. السادسة مساءً. تعشينا، نحن المرضى، كنا خمسة. بمجرّد أن ابتلعتُ آخر لقمة، نزلت من طابقي الثاني عشر، ووقفت مراقبا أمام باب المستشفى. في الجهة المقابلة، كانت حديقة شعثاء تصعد للهجوم على كومة من الصخور المتواجدة في شكل دائري، ركام من الرؤوس. بقيت هناك منتظرا، أنظر إلى تلك الحديقة الفائرة. أنظر فقط. فبعد البياض الساطع والمعقّم للصالات والأروقة، يأتي هذا الاخضرار الكثيف، وهذه الأزهار بألوانها البرية الصفراء، وتلك السِنْفيَة البرية أيضا؛ بقيت هناك ناسيا أنّي أنظر لأذكّرك به مباشرة بعد ذلك. الجوّ حار. بل إنّه أكثر من حار. الجوّ حار جدا بالنسبة لشخص مثلك يأتي من بعيد نحو الجنوب. الرمضاء عنيدة برغم الساعة المتقدّمة. احتراق خالص. البحر على خطوتين من هنا. ولكن هذا لم يخفض من الحرارة شيئا. (البحر، أراه من أعلى نافذتي. أراه بشرائط جزره العائمة، وغاباته، وضفافه المتهدّبة المنفتحة. تستقبله الجزر، تعانقه، تضمه إليها، تجعل منه بحيرات، كما لو أنّ هذه الأخيرة ناقصة في هذا البلد. البحر النائم، المتدحرج على نفسه.) أنتظر. وتخفق أفكار بأجنحتها بداخلي في الضوء الناري. فراشات تتدفق هشّة من جميع الجهات في آن واحد. الساعة السادسة مساءً. تصل فاينة. أراها، فلا أبصر إلاها، ولا أفكر إلا فيها حينما تنبثق أمامي. على بعد

خطوات، يشكّل النور المنتصر الآن فورانا. النور الآفل الذي سيترك مكانه ليوم آخر، يوم الليل. لا أعرف كيف وُجدَت هنا فجأة. وجه أججته حرارة الشمس وعينان لامعتان أكثر من ذي قبل. والابتسامة متلألئة أيضا، تحت ظل قبّعة كبيرة من التبن. أقودها باتجاه الصخور التي تقوم مقام الاخضرار في هذا المنظر الحضري. هناك مقاعد. ترتفع على أمتار قليلة وقادَنا صعودُنا إلى مقعد، كان مغروسا في الغرانيت.

جميع الأماكن، جميع الملاجئ، جميع المراقد، التي عرفناها فاينة وأنا. الشقق التي استلفناها –يوجد ناس هكذا يَضعون شققهم تحت تصرّف الأصدقاء. مقصورات القطار. مأوى عابر. في المدينة، في الريف، في مختلف البلدان. تلك التي نتذكرها جيدا، والأخريات... فنادق، فنادق، أكثرها مريبة. كانت إقاماتنا بهذه الأماكن مؤقتة. لقد حدث أن بقينا هنا أوهناك أسبوعا على الأقل؛ ولكن نادرا لفترة أطول. طيور عابرة. كان ينقصنا مستشفى. وها أنا الآن بداخل مستشفى. أدخلتني إليه فاينة، حالة استعجالية، من أجل مصلحتي. لست وحيدا إذًا مثلما كنت أتصوّر.

وها هي تحيطني بحبها، المأوى الأكثر عجبا حيث لم أتمنَّ أبدا الإقامة به – وانتظارها. جلسَت وأخرجَت من حقيبة زورقية بلاستيكية مليئة بالفراولة. قالت :

«من الحديقة. لأجلك».

أكلناها معا. نوعية روسية. ليّنة من الداخل ومعطّرة، لها طعم التوت البري. كنت أجهلها. نتكلّم، فاينة تتكلّم، أستمع. صوت ضاحك، إمالات صوتية متموّجة تتدثّر بالظلال، تتخلّلها خشونة مفاجئة. في لحظات، لحظات خاطفة، تتحدّث عن دروسها، عن زميليها، امرأتان، أعرفهما. تسمى إحداهما مايجا. تلقت مايجا مساء أمس قبل أن تلتحق بفراش النوم، مكالمة هاتفية من زوجها. لقد التحق بسفينته الصغيرة بميناء صغير على بعد أربعين كيلومترا من بوهجان. عاد من سفر بحري إلى الإتحاد السوفييتي. ارتدَت ملابسها بسرعة. استلفت من عند جارتها ثمن أجرة التاكسي. تاكسي لسحق الأربعين كيلومترا التي تفصلهما. أما هو فقد سافر بحرا لمدّة تسع ساعات متواصلة. هكذا تمكنا من قضاء الليلة معا. ونشوة فاينة وهي تروي لي قصتهما.

«أفعل مثلها. أفعل مثل مايجا».

تصفعني بلمعان نظرتها ذات الاخضرار اليَشْبي. تدفق شرس للسعادة. تتدفّق نفثات السعادة من جميع الجهات، تُلطّخنا. فرح بلا خليط. ذات ليلة ليست بالبعيدة، رأتني أسقط فاقدا وعيي، فاستعانت بسيارة الإسعاف لتحملني إلى هنا. والآن هي مطمئنة. أنا أعود إليها، من هنا، وإلا من الاتحاد السوفييتي. الآن لا ترى إلا هذا. هل الرجل خير كله والمرأة شرّ كلها ؟ على المقعد الذي تتقشّر صباغته، وعلى اخضرار الصخور الحمراء، ووسط الأجمات، والأزهار اللاهبة،

إنّها الغبطة القصوى، إنّه وباء الغبطة، يتمدّد الإحساس نفسه ويتوسّع. أستقي سروري من عيني فاينة. أرتعد. أشدّ حولي فستان نوم المستشفى. فاينة قلقة :

«هل تشعر بالبرد ؟ هيا ندخل.

– ليست هذه النسمة الدافئة هي التي... لا، إنّها مسألة أعصاب».

والتفهم الحاصل في نعمة ابتسامة. أتحدّث أنا أيضا طويلا عن صديق فقد والده. عرفت الخبر من جريدة جاءَتني من فرنسا. قالت فاينة :

كم أحبك ! كم أحبك !

قالت :

«هذا الصيف، يجب أن نعيد دهن المنزل».

قالت أيضا :

«بكل تأكيد. لم يُدهَن مُنذ حوالي عشر سنوات».

قالت :

«أنا التي سأعيد دَهنه. باستثناء السقف طبعا. سأطلب من جاري أن يدهن السقف. إنه دهّان محترف. يستطيع فعله دون مشقة».

أقترح عليها مساعدتي :

«ولكن يجب أن تنتظري خروجي من هنا».

– كيف ! إنك تمزح. في الأمر خطورة ؟

تنبت زهرة ولا أحد يستطيع قلعها. تنبت في قلبنا. لو نحاول، سنكسّرها ونكسّر أنفسنا. سنقتل أنفسنا بأيدينا. لن تُسقِط أدنى ظل، ونحن كذلك.

لا أفهم. أنا الذي أقول هذه الكلمات. لماذا أتكلّم بهذه الكيفية ؟

صاحت قاينة :

«هذا هو الحبّ !»

ولكنّي أواصل، فأقول : في الحياة الزوجية، حينما يبدأ الشقاق، يعني أننا نريد نزع الحبّ من ذواتنا، أو نحاول فعله. وليست الشكاوى إلا حججا واهية. تأتي كإضافات. يعني أننا نريد تدمير لحمنا أو الشيء الذي يلتصق بهذا اللحم : القوة، الجمال، الذكاء.

أخيرا قلت :

«لا نكون نحن إلا داخل الحب».

قلت هذا وأنا مذعور، ولم أنظر إلى فاينة، بل وجّهت بصري بعيدا عنها. ثمّ أدرت عينيّ نحوها. كانت عيناها غاصة بالدموع. غاصة إلى حدّ الفيضان، إلى حدّ إغراق العينين. شيء ما تكسّر، شيء يبكي بصمت في عينيها المفتوحتين

على اتساعهما، المثبتتين في وجهي. لا داعي لتحويل بصري لاستكشاف الضواحي. نور متأجّج يملأ المكان. المستشفى، طوابقه، قطيع حدبات الصخور، الأشجار، الأزهار، الناس : كل شيء يخضع لهذه النار. خاضع... ماذا نضيف ؟

أصمت. الآن، لا مكان للكلام في هذا المكان. توجد لحظات شبيهة بهذه.

تجري دموع فاينة دون ضوضاء. تتأملني عيناها دائما مثل منبع تعرّف عليّ وبقي ينظر إليّ باندهاش. النسمة عبارة عن ارتعاش أجنحة، أفكار. لم تعد الشمس موجودة. تمنح الأزهار نفسها لليلة الشفافة. ومحيطنا كذلك. ثمّ قامت بحركة إبعاد شريط من فستانها الأزرق الطويل المبرقش بنقاط حمراء صغيرة، أرتني جسدها، ونهديها العاريين تحته. لم ننتهِ من البحث عن بعضنا البعض، في ذلك العهد، فاينة، لم ننتهِ من العثور على بعضنا البعض كي نضيع ثانية.

- 3 -

هذا الصباح، حملت لها باقة أزهار بريّة نديّة. وضعتها بين يديها. فلم تمسكها. فضغطت يديها ضد يديّ كي تتمكن من إمساكها جيدا. باءَت محاولتي بالفشل. يَجب على ذلك الذي ينتصب بيننا أن يَعتَرف بكذبه عاجلا أم آجلا. حدّثتها. فلم تتغيّر ملامحها. بقيَت خارج مدى كلماتي، وعلى وجهها يرتسم ذلك الذهول الحزين. عندئذ، حدّقت في عمق عينيها. وككل مرة، لم أرَ إلا البحيرات، بحيرات بلادها، بحيرات تُختزل في واحدة.

كما المرات الأخرى، كما كل مرة، بحيرة واحدة، ولا تراني، فيما كنت أرى نفسي أقترب منها، صورة، تخلف نفسها، رؤية، ولم أعد أعرف من أين أخرج، ولا أتذكّر شيئا كلما اقتربت أكثر. ذلك أنّ عيني فاينة المفتوحتين على اتساعهما تحدقان فيّ مثل شمس صماء. وأنظر إلى تلك الشمس، وهي تلعب بالماء، تصيّرها ضياءً، وهي تتدحرج نحوي، تسحبها لترميها، إلى الثانية. وأخيرا، لم أتأخّر من الإحساس بأني وصلت حيث يجب أنّ أكون بكل ضرورة. ألم أجد نفسي إلا مقابل نفسي ؟ كان الحظ في تلك اللحظة أن أتعرّف على ذاتي. كانت دائرة المياه والإشعاعات التي أنتصِبُ أمامها تبدو شاغرة، مسلّمة مثلما هي لإشعاعها الخاص.

لم تتعرّف عليّ، أم أنها لم تُرد التعرّف عليّ، لم تتماسك نفسها : فاينة، المياه، الضياء. ليس أكثر مما أتعرّف على نفسي. لم أعرف من كان يتهرّب مني. فكّرت : «هذه هي اللعنة».

بدأت أحدّثها :

«يبقى السؤال الحتمي في نهاية المطاف –كم أحب هذه الصيغة : في نهاية المطاف ! – هو ذلك الذي تطرحه لفظة عدد وتطرحه التعابير الرقمية.

ما دام الأمر يتعلّق بضمان قاعدة خاصة لنظرية المجموعات لحمايتها ضد المفارقات، لتحويلها إلى بديهيات لا تحتاج إلى تعليل، ما يمكن اعتباره اليوم شيئا منجزا، فلا مكان

لاهتمامات إضافية، ولا فصول للهموم ذات الصبغة الدلالية. أما اليوم، فهي موجودة؛ ونعثر هنا على صديقنا القديم «فْرَج». برغم «روسيل»، برغم نظريته المشهورة حول «تناقض المذهبين» التي ساهمت في خسوفه. هذا الخسوف مرور حتمي، وكما كل خسوف، مرور تمليه المرحلة الجديدة للمعرفة المنطقية والرياضية. وبعد ذلك جاء «ويتجِنْستاين»، وجاء «كارْناب». جاءا، واشتغلا ثانية حول معطيات «فرج»، الواحد والآخر. نعترف مع «فرج» بأن اللغة هي الفضاء الحتمي ومأوى كل تظاهرة، كما لا يمكن أن لا نتقبل بأنها في نفس الوقت المكان الذي يقيم فيه الشيطان. ويسألنا السؤال : هل سنعرف التحايل مع الشيطان ؟ مُبادرة خطيرة، بل ويائسة. ومع ذلك يجب محاولتها مهما كلفتنا من ثمن، واكتشاف ماذا نعني **بالعدد** كي نجيب عن السؤال : كم ؟ ثلاثة : فاينة، المياه، الضياء. واحد ؟ لم يكن باستطاعة «آكامَنون» أن يقول لنا كم لديه من أرجل. سيكون محكوم علينا ألا نعرف كم لنا من أرجل ما دمنا عاجزين عن تعريف **العدد**. سأبقى سجين عجزي بالقول كم يوجد من فاينة، وكم من مياه، وكم من شموس. الكثافة هي كثافة اللغة : إنّها الفعل الأول، والأخير أيضا، لأنها تجبر كل عملية فكرية على المرور عبرها، هي المادة المسلَّمة على شكل خطاب. لذلك، فعلى عالم الرياضيات أن يعطي العناية أوّلا لشكل كلامه الخاص. تجرّ كتلا من العقلانية الأجنبية عن المجادلات العقلانية للفلاسفة. هي وحدها في نهاية المطاف –دائما هذه الصيغة الرائعة : في نهاية المطاف– تمنح لها المعنى

الذي يجب إتباعه، الفهرس الذي يعيّن ويكشف عن «الأشياء» التي ستكون موضوع النشاط الرياضي. فلن يتوقف السؤال : «ما هو العدد ؟» عن مساءلتكم إذا لم تتخلوا عن فكرة أن **العدد** ينتج من ترقية طبيعية للحساب. ربّما بدت الفكرة غريبة نوعا ما...».

وهناك أيضا. دائما في بلادها. كانت الساعة الواحدة صباحا، وكانت فاينة تقودني عبر بوهجان، تشرّفني بالتعرّف على شوارع عاصمتها. ثمّ انتهت نزهتنا بالعودة إلى الفندق الذي أقيم فيه، المسمّى «**أكاديمِكا**»، أليس اسما جميلا ؟ ومع ذلك لم ندخل، بل واصلنا نزهتنا، هبطنا عبر الشارع الممتد أمامنا. بعد قليل وجدنا مفترق طرق تقطعه سكة الترامواي الحديدية على شكل صليب في هدير أصم. قطعناه، ووصلنا طريقنا باتجاه مستقيم، ثمّ سلكنا شارعا بلا أضواء، هكذا تقول ذاكرتي، به أشجار البتولا، بيضاء كأرواح الموتى، ظلال بلا كثافة في ليلة هي نفسها شاحبة بكيفية لا مادية. ليلة، أفق حنين حيث يبدو فيه كل شيء، وطريقك أوّلا، متجها نحوه، وأنت تحمل المنظر الذي يعبر جسدك المعرّض لنشوة لطيفة. أما أنا فكنت أتقدّم. ولم يكن بمقدوري أن أقول كذلك بالنسبة لفاينة. ولكن لم أمنع نفسي من الاعتقاد بأنّ شيئا ما حلّق بها عاليا. الدليل ؟ كانت في الغالب إلى جانبي، ومع ذلك أراها تتقدّمني، قافزة، راقصة، تدور على نفسها. جنية صغيرة. جنية تفتح لي الطريق وهي تواجهني. كانت تمنحني أيضا تلك البراهين التي تمنحها لتلك الليلة التي سكنتها بشكل عجيب.

وكان ذلك يذوب في صمت عظيم، وما أوسع ذلك الصمت. ثمّ، ودون أن توقف ألعابها، أشارت لي الجنية أننا نحاذي مقبرة على يسارنا. وعلى اليمين، تمتد فضاءات عارية، لتصطدم بسدّ منحدر من العمارات. في إحداها يسكن والدا فاينة؛ كانت فاينة وهي صغيرة تأتي لتلعب في هذا الميدان. ستحكي لي، ولكن فيما بعد، بأنها كانت تأتي، أيام حملها، لتتجوّل فوق الثلج : وهناك شاهدها طفلان كانا يلعبان بمركبة ثلجية، فانفجرا ضاحكين، يَسخران من بطنها المنتفخ. أما في هذه اللحظة، فكانت ظلال عينيها وسط جوّ فجر بلا فجر وبلا قمر، منظر غفل لا يفرض نفسه إلا بغرابته. لم يكن يريد أن يسلّم نفسه، ولا أن يعرّف نفسه كي نتكفّل به. بقي غريبا، ربّما كان أحسن لي، فأشعر بخطورة أقل. كان لزاما عليّ أن أتكيّف مع الوجه الشارد الذي يظهره لي. ولم أتكيّف معه إلا بشكل سيّء.

علّقنا على ذلك المنظر. لم نكن بحاجة إلى كلمات. لقد صيّرها الليل بلا كثافة، كما جميع الأشياء التي تحيط بنا. الكلمات. لا، لم يفرغها من فحواها، وإنما أثقلها بوزن لا يمكن لأي يوم أن يخففها منه. وعندما أشارت فاينة هذه المرة، فوق المقبرة وجدارها، إلى شبح الكريماتوريوم (المحرقة)، توقفت أشجار البتولا فجأة، غابت. المدينة أيضا. المدينة ومعها مشهد العالم. توقف كل شيء. كنا نمشي على الرمل. يوجد البحر أمامنا. لم يكن هناك إلا البحر وسقسقة نورس آرقة. كانت المياه جامدة، هادئة، تتدثّر بفجر ليس كجميع الأفجار، يشبه

تلك التي يحلم بها القيّمون لخدمة الآلهة. كان ذلك البياض الأملس يرتوي من ينابيع الليل، حيث تطفو على الماء جزيرات بضفائرها المتوحّشة، كما الحيوان الخرافي. تعانقنا أمام مثل ذلك البحر، لا ليلي ولا نهاري، بل هو شيء آخر غير البحر.

والعودة. سلكنا الشارع نفسه، مشينا تحت ظل البتولا، طوال المقبرة. ولكن هذه المرّة، عند المنتصف، درنا على اليسار وقطعنا عبر الحقل المهمل. تقودني فاينة. في العمق البعيد، ترتفع العمارات، في واجهة متواصلة، عيونها مطفأة، عيونها عمياء. رأتنا ونحن نَصِل إليها لنقوم بدورة تخرجنا إلى واجهتها. باب، ها هي فاينة تُدخل المفتاح في القفل. دخلَت. اختفَت خلف الباب الضخم الذي انغلق عليها ببطء وبلا أدنى صرير.

لم يبق لي إلا أن ألتحق بفندقي «أكاديمكا» على مسافة قليلة من هنا. لا خوف عليّ من الضياع، الآن حيث لا أحد يقودني من يدي. ترنّ خطواتي في الفراغ، وحيدة. فارغة من الليل، فارغة من المدينة، فارغة من القلب. فراغ فتحته فاينة، بقبلاتها التي خففت رطوبتها من بشرتي، قبلات غرقَت بداخلها، كاملة، كما لو أنها أرادَت إرواء عطش لا يُروى، وهي التي أرهقَت نفسها في النهاية، فاحتاجَت إلى هواء للتنفس. في تلك اللحظة، أدهشني هذا النهم بإفراطه المثقل بالهموم. قلّت دهشتي اليوم. في ذلك العهد، كان بداخلها شيء يشبه

الموت ويريد أن يتدفّأ بتلك الطريقة ويباشر من جديد ضفاف العالم الخضراء.

- 4 -

أيام كلّها تتشابه، تلك التي قضيتها قرب فاينة. مناجات نفسية، أقوال، هذيانات. الحكايات التي كنت أقصها عليها، النصوص التي أقرأها عليها، والتي لا تُعَد : إن كان ضمن العدد ما يُحدث أدنى أثر عليها، فلم يكن إلا أثرا عابرا. كنت أرى ذلك جيدا. بسرعة كانت تعزف عن الاستماع إلى الشيء الذي لم تكن توليه أدنى عناية. نتحدّث مع الآخرين، قليلا أو كثيرا، ولكنّنا لا نتحدّث إلا لأنفسنا. بعد فترة، جاءتني فكرة أخْذِها في نزهة. فتساءلت كيف لم أفكر في المسألة قبل ذلك. مرحلة وصلت إلى نهايتها، فكان عليّ أن أغيّر، أن أبحث عن بديل. إنّ الذي حدث لي هو أنّني انْدَبقت في مرضها، ولم أشعر بمرور الوقت. بدوري ذهبت إلى العمق، متصورا أنني أجذبها إليّ. أدركت ذلك فجأة. حان الوقت. فتكرّرت خرجاتنا اليومية. وأكيد أنها أتت بتحسّن، برغم صعوبة مقايسته في حالة فاينة. لقد تجوّلنا في المنطقة كلها، ذهبنا بعيدا عن مريكور في بعض المرات. بادرت بجولتنا الأولى دون تحضير ولا خريطة، وكذلك فعلت بالنسبة للجولات الأخرى. آخذ فاينة، أضعها في السيارة، وننطلق نحو المجهول. أدرك بعد ذلك كم أكون أنا بدوري مسرورا بمغادرة ذلك البيت الذي أصبحَت فيه

إقامتي مثيرة للقلق. تحوّل البيت إلى مكان مشئوم. يبدو أنّ نفحات رعب تنبعث منه.

كم مرة، ودون أدنى تفكير، غادرت البيت الملعون لأنطلق بعيدا، آخذا معي فاينة. الوجهة : الغرب. في الشرق، كانت هناك فرساي، كانت هناك باريس. بالتأكيد ليس هذا ما يناسبنا. كنا بحاجة إلى فضاءات رحبة، إلى هواء نقي. كنا نمرّ بالضرورة عبر الريف المروّض، المجترف، المسجون بين جدران أو سياجات حديدية، ريف الضاحية الكبيرة. كان حزنه يثير الوجع في القلوب، خاصة في فترات تردّي الأحوال الجوّية. برغم أننا كنا في شهر جويلية، إلا أنّ السماء لم ترفع غطاء الغيوم اللينة، المحدّبة، وإن حدث أن فعلت فتكسيه بغطاء أخف ولكنه بذلك الرمادي المريب. فأندفع بعيدا، بعيدا جدا بحيث أكتشف حقولاً حقيقية واسعة وبها دروب ترابية، حيث يمكننا ترك السيارة لنمشي فاينة وأنا، بفرح وسرور، وسط المروج والغابات.

في ذلك اليوم إذاً، قمت بما كنت أقوم به في كل مرة في الأيام السابقة : بعد سباق بلا هدف، أنحرف عن الطريق الوطني لأسلك طريقا جانبيا. فبدأت هذه الأخيرة تصعد. فظهرت غابة في الأفق. هذا ما كنت أبحث عنه دون أن أعرف كيف أصل إليه. لا يجب تضييع الخيط. كانت الغابة تؤثّث ذروة التلال. اتّجهت نحوها، واصلت السير. قطعنا مجمعا سكنيا، درنا. كان الطريق ضيقا، عبارة عن شريط ترابي تنقضّ عليه الأعشاب في

أماكن عديدة. يتسلّق الدرب المنحدر؛ دورات كثيرة إضافية. كيلومتران، أو ربّما ثلاثة من الدورات، قريبا سنصل.

كانت الغابة هنا، متقدّمة. مباشرة، سمحَت لي مساحة جانبية لأركن السيارة. نزلت، أنزلت فاينة. سلكنا دربا موازيا للطريق الترابي، لا يكاد يظهر وسط حشائش النَفَل والقوَيسَة والتُرُنْجان الأزرق اللون. كنا نتنفس الهواء الناعم بملء رئتينا. كان صمت هذه المساحات الخضراء يرنّ في آذاننا، ولا تعكّره إلا بعض الأصداء البعيدة، المتقطعة. ولا شيء بعد ذلك. وطئت قدمايّ الفراش العشبي دون أن أشعر بحاجة لأقص حكاية لفاينة. انتهت الثرثرة، انتهت عبوديتنا للكلام. هناك في الأعلى، تسند سلسلة التلال السماء، وبعدها مباشرة امتدت الغابة كما لو كانت جاثمة على كتف ربوة. مشينا لفترة بمحاذاة الغابة دون أن نجرؤ على الدخول. في الهواء فوقنا، كان ثبات تحليق يُبقي ذلك الطائر الكبير، نسر ؟ في مستوى فرحي. وبعد ذلك، بدأ يحلم من أجلنا عبر دورات طويلة، وانزلاقات بطيئة. كان المدّ الضاغط للنباتات الحبية والعلفية المزينة بسنابل رقيقة، أكبر بكثير من تلك الموجودة في الدرب المهمل الآن، تحيط سيقاننا، وتصعد رويدا رويدا إلى غاية الحزام. مشينا طويلا، هنا وهناك.

وبعد ذلك دخلنا تحت الأشجار. كانت الجذوع الشقراء تتقارب الواحدة من الأخرى بحيث تشكّل غرفا عطرة بأعمدة. غرف متتابعة في سلسلة متواصلة، وبدا لي أنّ فاينة لم تكن

تنتظر منّي إلا أن أفتح لها الطريق. وقريبا تقدّمت للموعد أجناس متنوعة من الأشجار : البلوط، الزّان، الكسْتناء، الدردار، ويضاف إليها الإجاص والتفاح والكرز، ولكنها تحوّلت إلى حالتها المتوحشة. شيء مصنوع لإمتاع فاينة إنْ كانت قادرة على إدراكها. هذا التجمع المتباين الذي أذهلني. وداخل الحمام الندي لهذه الغابة، ودون أن نتفق على شيء، سلك كل واحد منا طريقه. وبعد لحظات من افتراقنا، توقفنا تقريبا في نفس الوقت أمام باقة من شجيرات البتولا الحديثة النشأة، اللامعة والتي تنفصل ببياضها الثلجي عن الكتلة الخضراء الداكنة المحيطة بنا. عند رؤيتها توقفت فاينة، نظرت إليها دون أن تنبس بنبت شفة. شجرة بلادها.

أخذتها من يدها وأبعدتها عن ذلك المكان. فاضت دموع من عينيها، ولكن يبدو أنها غير واعية بها. لم تطلق أنة واحدة. ومع ذلك كانت تلك الدموع.

من جديد فرَّت، وبمفردها، واختفت خلف الدغل. لو تُقرّر مواصلة تيهانها هذه المرة عبر كامل الغابة، من منا سيكتشف الآخر ؟ بدوري أتجوّل بلا هدف، قدماي داخل الأعشاب، ووجهي تسوطه الأغصان الواطئة. من سيعثر على الآخر ؟ في تلك اللحظة، بدا لي كما لَوْ أنّي استمع إلى لحن، ولكنه لحن بعيد وضعيف، بحيث أرجعت ذلك إلى اضطراب الحواس الواقعة تحت فتنة الغابة. وفجأة أدركت كنه اللحن : فاينة التائهة

وسط الغابة تغني لحنا من أغنية فنلندية. أسترق السمع، أكتم أنفاسي. أستمع. العالم لا يقوم إلا على خيط، وقلبي أيضا.

عبّرت لها عن سروري عندما التقينا بعد دورات عدّة. بدَت بأهدابها المرتفعة أنها تدرك العناية التي أركزها عليها دون أن يظهر على محياها أنها فهمت قصدي. ومع ذلك كانت تلك النظرة في عينيها. لم تقل نعم، ولم تقل لا، ولكن كانت تلك النظرة.

الآن، هي التي تفتح الطريق عبر المتاهة الغابية. فجأة، ابتعدت الأشجار، جميع الأشجار، كما يمكن للستائر أن تفعل ذلك بنفسها. لقد وصلنا إلى الضفة الأخرى من الغابة، التي لم أتصوّر أننا سنلتحق بها بهذه السرعة. فوقفنا أمام المشهد العظيم للأراضي الشاسعة، المقسّمة إلى غاية الأفق إلى شرائط خضراء ورمادية متشابهة إلى حدّ كبير. هذه المزروعات واللون الفضي اللامع للسماء الجاثمة فوقها؛ وعجين المعدن نفسه يغطّي الأفق اللامتناهي.

منعتنا حزم أغصان وأشواك كثة من الذهاب بعيدا. أطلنا وقفتنا في نفس المكان خلال دقائق من التأمل الملفوف بالحنين. ثمّ ألتفت نحو فاينة. أرتعد. ما هي نوع الملامح التي ارتسمت على وجهها من جديد ؟ خدان ضامران إلى أقصى حدّ، عينان يقضمهما القلق – لا، الدعاء، لا، نداء الحمّى– هي تعابير وجهها. وتواصل نظرتها التوجّه الشديد لتلتقي بنظرتي. لم يخرج صوت من حلقها، ومع ذلك أحسست أنها تريد إيصال

شيء لا أعرف كنهه، ربما هي أيضا تجهل ما هو، شيء لا يمكن إيصاله للغير. بهيمة لا تعرف ولكنها تحاول أن تتكلم. أحطتها بذراعيّ، وضممتها إلى صدري. سألتها :

«ماذا حدث لك، فاينة ؟ ماذا حدث ؟»

دون أن تجيبني، شيئا فشيئا، أبعدَت مرفقيها عن جسدها، كما الطائر المستعد للتحليق، ثم رفعَت يديها، شيئا فشيئا، وعقدَتهما خلف رأسها. بعد ذلك انتصبَت على طرف قدميها، فأطبقَت شفتيها على شفتيّ، ولم تتحرّك. التصق فمها بفمي، وبدَت عاجزة عن الاستئناف أو الانفصال. وضعية جسم أميّز فيها النار الجليدية، المنسحبة، المختزلة إلى خيط بسيط، لنظرة الذئبة التي تسلطها عليّ وهي تحاول أن تجد نفَسها في نفَسي. فكّرْت : «مرة أخرى، كما لو أنّ الهواء سينفد فجأة، ولن يبقى منه شيء للتنفس، وتكاد تختنق». ولكنها أبعدَت شفتيها من تلقاء نفسها وتراجعت خطوة إلى الوراء. فكّرت : «نعم. أنْ تُترَك بلا نفَس، بلا حياة». أراقبها : صعد إلى وجهها تورّد لطيف. تغيّرت ملامح وجهها، منحتني عينيها المنفتحتين باتساعهما عليّ، على العالم. لا أعرف ماذا أقول، ولم أحاول قول شيء. كيف ستدرك اضطرابي ؟ فوجّهَت إليّ تلك الابتسامة التي أعرفها لها، والتي تعرّفْت عليها فجأة وسط ذهولي. يا لها من جاذبية تلك الابتسامة التي تركتني أرتعش حُبّا وشقاءً !

هَجَرَتْها رغبةُ الكلام، وحدهما العينان تحاولان الكلام في مكانها ولكن لغتهما تبقى غير قابلة للتشفير. تتجرآن على مساءلتي، على إحراجي. فأواجه الغرابة الشرسة، حتى وإنْ صَدّني هذا الجدار في كل مرّة. لن أستسلم، لن أتراجع. سأتعَنّت على إخراجها من الضفاف الحالكة التي تشدّها، كي تراني كما في هذه اللحظة، داخل هذه الغابة؛ لترانا جميعا، وتحدّثنا. سيسقط اللغز، سيذوب الرصاص الذي يختم على شفتيها...

سأستأنف مناجاتي معها رويدا رويدا، بصبر وبلا توقف. يَجب أن لا تفقد عادة سماع الصوت البشري عبر صوتي. المكان الوحيد...

بعد هذا، بعد تلك النزهة... لم يتغيّر شيء في حالة فاينة. بداهة يجب الانتباه إليها، يجب العيش معها، والالتصاق بها دوما. تحوّلت فاينة إلى ذلك الشيء الذي يبتعد عنّا، ينفر منا، بجسمها المثقل وملامحه الغامضة والحركات النادرة والبطيئة، والنظرة المطفأة. ومع ذلك حينما أدخل عندها في الصباح، تنتعش ملامحها قليلا. بريق خاطف يؤجّج عينيها اللتين تتلألآن. ولكنها لا تتأخر للإغراق ثانية في ذهولها، والتخلي عن جسدها وروحها. من جديد، ليست حاضرة إلا في غياب لا يعكّر صفوه أحد. وأجد نفسي من جديد أمامها، عاجزا عن فعل شيء، تائها، عرضة لنفس القوى التي تجتاحها. أستأنف حديثي معها، غير مُستَسلِم. أرفض أن أترك صمتَها يهيمن، يتغلب علينا. هذا الصمت، هذه الغيمة الأمتن من صخرة.

أليسَت هي المرأة التي أحببت ؟ هي، الخارجة عن ذاتها بلا ضوضاء، وأنا أقتفي أثرها كما ظلها، وكنت سأتبعها أينما قادتني : وإن كان ذلك البيت البعيد الذي لم يتوقف عن ندائها والذي لا نرجع منه إلا نادرا. لم تكن أحدا، كانت غريبة. ولكنها كانت فاينة.

كان ذلك الوحش الشاذ الودود الذي يحفر بداخلها، مترقبا طوال الوقت، متشبثا بتلابيبها، يشدّني أنا أيضا تحت رحمته. لم أكن أجهل هذا الأمر. أكيد، لا ! كان إحساسي به واضحا حتى وإنْ صَعب عليّ تحديده. نعم، الوحش اللطيف، المتعاطف، الذي يريد أن يكون كذلك. إنّه إفشاء، وأستقبله مثل حجرة على الجبين، كما لو أنّ هذه الحجرة تعيّنني، تتهمني. كما لو أنّني كنت أنا ذلك الوحش. أدمتني الحجرة وحثّتني على مغادرة البيت، والهروب بعيدا، بعيدا، بعيدا.

يجب عليّ أن أبقى، أن لا أهمل فاينة.

وما العمل حينما تتوقف الكلمات ؟ حينما تصمت الكلمات، حينما تنمحي ؟ عندما يُصبح التفكير المتحرّر من الكلام صمتا. حينما لن تتحدّث إلا عن طريق الذاكرة، بل وعن طريق النسيان فقط. حينما يُسندها النسيان بمفرده ولن تكون إلا موجة في قاع الرمل، الآتية دون إتيان، المنسحبة دون انسحاب. حينما يكون السرُّ الذي تُمارسه سرّ الموت الذي يفكّك شفرات الحياة. حينما تعرَّضنا، أنتِ وأنا، إلى هذا السؤال. هي التي توجد، تقاوم. في لحظات العناية المطلوبة والمحوّلة،

عندما تسقط نظراتنا عليها، ينفجر وجهها في ضحكة عصية الاحتمال كي يسترجع قناعه، وثباته الصارم. ونُدفَع إلى ركن ننكمش على أنفسنا دون أن نقول شيئا. قناعُ صفحةٍ بيضاء، صفحة لا يمكن أن نسجل عليها شيئا، لا يكون ظهورها إلا عبر محوها.

الشبَح الأصلي

- 1 -

مقابل عود كبريت آخذه من العلبة الأولى، آخذ عودا آخر من علبة أخرى، أو العكس. إذا افترضت أنه مقابل عود كبريت -أستخدمه لإشعال سيجارتي- يوجد مفهوم معطى «س»، أبني عند كل ضربة مفهوما متفرعا «ص» يساوي «س». كلها روسية. هكذا، يقابل «ص» شيء ما : سعته. ها أنا بحضور العدد الأصلي نفسه. وبما أنّ منهجيتي مصممة بكيفية عامة كي تسمح لي بتشكيل مجموعات لانهائية، يكفيني أن أحتفظ، كي أجد العدد المجيب عن السؤال : كم ؟ -هذا التحّدي اليومي-، بأنه حالة خاصة، أي أنه عدد أصلي منتهى. ويكون النجاح كاملا حينما، زيادة إلى الصفر، عدد المفهوم الذي لا يساوي نفسه، أكون قد حدّدت وظيفة التتابع بحيث أستطيع القول : عدد طبيعي كامل يستخلف الصفر. لا فرد، ولا سلسلة من الأفراد، ولكن طبقة من عائلات المجموعات، تصلح كمفهوم مجرّد من الدرجة الثالثة، بل وليس مجردا، في شكل يُلائم التعبير عن بعض المفاهيم. العدد كما في ذاته...

ولكن أين أنواع الفراغ، والانقطاع والصمت المدرج –ما بين النجوم، آه يا باسكال– التي يمر عليه جهد تشكيل العدد، ويحضنه ؟ كيف تكون ؟ ينتهي بنا الأمر دائما إلى معرفة اتجاه المعنى وماذا يقصد. ولكن ما الذي يختفي بين أدوات المعنى، أيُّ شبح أصلي ؟

لا أستطيع تعريف هذا الإحساس، وكذلك الهدف من بحثي. ومع ذلك، توجد المعرفة السبقية، صاعقة سقطت أو تأجلت خلال لحظة وقت صغيرة جدا : المكان الخاص الذي أتواجد فيه، حيث أكون الآن. ذلك المكان، أو الفضاء حيث يمكن لمغامرة، كما يمكن لاكتشاف أن يكون، أن تحدث لي إن كان قدرها هو كذلك. في النوم، يتجلى الجمال أكثر، يبرز أكثر، يتعرى. أما حالة السهر، فإنها عذاب متواصل. حينما تغفو غفوة حوّاء تستسلم لأيدي الفرح. فرحها.

كلمات، كلمات، جسور تُرمى فوق الهاوية. ومن هاوية إلى أخرى، الحياة في أسمالها. خرقتان، ثلاث، أربع، ولا أعرف كم عدد أنقذها الكلام، ولا أعرف ما هو الكلام الضامن للمقاومة : كلامها، كلامي، أو كلام غيرنا. آخرون كانوا نحن، آخرون لم يكونوا. أنتم. الكلام فوق الهاوية. عمر فاينة الآن إحدى عشر سنة. وضعها والداها عند عائلة سويدية كحارسة أطفال. أرستقراطيون يا عزيزتي. كانوا في عطلة على واحدة من جزر آلاند. صيف على الجزيرة. لم تكن إلا صخرة في عرض البحر، لا تسمح هنا وهناك إلا برؤية بعض الأعشاب النادرة، وفي

بعض الشقوق شجيرات قليلة قصيرة، معرّضة لقسوة ريح عنيدة جدا. كان يجب على هذا الطفل أن يعتني بطفل آخر، أصغر منه، ووحيد أهله. وعلى عاتقه أيضا : الجدّة وطرف من حديقة. حراسة واحدة، كبيرة جدا، والعناية بالآخر، بمشقة كبرى.

تتغيّب صاحبة الدار، وهي طبيبة، ولا يظهر الزوج إلا لفترات خاطفة. مهما كان الوضع، فإن فاينة تملك هوامش كبيرة من الحرية، وفي سكونها بدأت تكتب. يوميات حميمية، مراسلات مع العائلة، مع صديقتها؛ وتكتب الشعر. تكتب، وتكتب. كانت تنضُج، وتحسّ بذلك. المدهش في الأمر أنها تعرف. ذات صباح، وبفضل استضاءة، أدركت أنها أضحت فتاة. من الضروري أن تؤشّر على ذلك اليوم بعلامة لا تترك أدنى مكانة للشك. ولكن أية إشارة، أي فعل، أو علامة ؟ فقصّت شعرها. سنتيمترات قليلة في تلك العُفرة الفاخرة الكستنائية اللون. وبالصدفة، كان ذلك اليوم عيد القديس يوحنا. لنرتدي أجمل فستان لنا، ونذهب معا، برفقة فتاة من الجيران، وننتظر أن يأتي الفتيان ويأخذوننا نرقص. في الجزيرة، لا توجد نيران على طريقة أعياد القديس يوحنا. بسبب تلك الريح المفجّرة للحرائق ؟ ومن أين نأخذ الحطب، تلك المادة الثمينة ؟ ولكنهم نصبوا صارية وسط الحديقة. وزيّنوها بشرائط طويلة من القماش، متعدّدة الألوان، كما يفعلون مع فحل الخيل المستعد للاستعراض. سنرقص، وندور حولها ماسكين الوشائح.

لم يأتِ الفتيان للبحث عنّا. لم يفكّروا في الأمر. فات الأوان. أما نحن، فنفكّر فيهم.

كانت مكانتها في ذلك البيت بمثابة خادمة، أدركت ذلك في الأخير. في يوم ما، تاريخه غير مهم، انتابتها رغبة قطع قطعة خبز أثناء الحفل. ذهبت ولاحظت أنه تعفّن. عادت وأخبرت السيّدة التي أجابتها :

«أنزعي القسم المتعفن، الباقي صالح للأكل».

ترجمت فاينة لنفسها : «نعم، الباقي صالح لي دوما. وكل ما هو فَضْلة».

مع أنها تشعر بالسعادة هنا. لها غرفة خاصة بها، الشيء الذي لا يمكن أن تطمح إليه تحت السقف العائلي. زيادة إلى أنها مالكة لنفسها، الشيء الذي لا يسمح به والداها. بالأخص أبوها.

الخروج إلى البحر.

لحسن الحظ كان السيّد حاضرا، فتقرّر الأمر بسرعة، نظموا خرْجَة إلى البحر.

ها هم في البحر. كان السيّد في بدْلة السباحة يجدف، والسيّدة زوجته إلى جانبه. والجدّة... ماذا فعلوا بالجدّة ؟ القصة لا تقول شيئا عن هذا الأمر. كانت فاينة جالسة مقابل الزوج وتعطي الأكل للصغير. فلاحظت أنّ العضو التناسلي للرجل

ينزلق خارج التبان. من فرط المفاجأة، تركت المغرفة التي كانت تغذي بها الطفل تسقط في الماء. صرخت السيّدة، منزعجة :

«ماذا حدث لك يا ابنتي ؟»

بعد تلك الحادثة، انكبت فاينة على تصفح والنظر إلى جميع كتب الطبيبة، جميع الكتب.

تلك هي لحظات، لحظات تطفو فوق نار الذاكرة. وذلك الوصول، وصولي إلى بوهجان بعد رحلة دون أدنى عائق. كانت الساعة الخامسة بعد الزوال. وقد خيّم الليل. الظاهر أنّ الثلج تساقط بكثرة. لا نميّز مدارج الهبوط من نوافذ الطائرة. في اللحظة التي دخلنا المطار، كانت عاصفة من ندائف الثلج تسوط الواجهات الزجاجية. مراقبة الشرطة. وصلت أمتعتي عبر السجاد الآلي. عند الجمارك، نمر دون أن يسألنا أحد عن شيء. عند الخروج، لا أثر لوجود فاينة في الرواق. لم تتأخّر أبدا عن الحضور عند قدومي. أنتظر. أكيد أنّ شيئا ما قد أخّرها. ستظهر بعد قليل وعلى شفتيها ترفرف تلك الابتسامة الرائعة التي تخصّها لي دائما.

مرت ساعة. لم تظهر فاينة. بقي اعتقادي بوصولها راسخا لم يتزحزح : ستظهر، ستأتي. تجولت قليلا، مشيت عبر الرواق الذي لا يزال يعبره المسافرون عبر أمواج متقطعة. خشيتي هي أنّني إن ذهبت الآن، قد نتقاطع في الطريق دون أنْ نعرف. وتذكرت.

حدث ذات مرّة أنها لم تحضر في الوقت المحدّد، وانتظرتها مثلما أفعل الآن. وفي النهاية، حينما ذهبت إلى بيتها، دون مساعدتها، لم أجدها هناك؛ تساءلت أمام الباب المغلق: ما العمل؟ في تلك اللحظة وصلت وحكت لي مغامرتها. قصة غريبة. كانت ضحية هلوسة، شيء مثل تشوّش الحواس. حضرت إلى المطار قبل هبوط طائرتي، ولكنها فجأة لم تتعرّف على الأماكن هناك. تاهت، ذرعت الأروقة، هبطت الأدراج، قطعت القاعات. كانت تجهل أين توجد، ولم تكتشف أدنى مَخرج. كابوس لا يريد أن ينتهي. خرجَت ولكنها لم تعرف كيف، تراودها فكرة واحدة: الهروب من ذلك المكان المجهول.

هذا الذي حدث من جديد، عاودها الحلم السيّئ، عاد بعناد بعض أحلامنا. كنت أطرح على نفسي السؤال حينما استمعت إلى اسمي عبر مكبرات الصوت ينتشر عبر أرجاء المطار. فكّرت خلال ثانية: «ها هو الحلم-الكابوس يعود ثانية، وأكون أنا ضحيته».

لا، دعوني إلى التقدّم نحو مكتب الاستقبال. مرّ بَعض الوقت كي أفكّ لغة الآلة الناطقة وأفهم فحوى كلامها. حينما تقدّمت إلى المكتب، نقلت لي فتاة شقراء رسالة. رسالة من فاينة تطلب مني أن لا أنتظرها وألتحق ببيتها. الأمر الذي كنت أفكّر فيه منذ عدّة دقائق، ميئوسا من الانتظار.

استُقبلت بشكل سيّء منذ عتّبت الباب. علمت على لسانها أنه ما كَان عليّ أن آتي، بأنه لا مكان لي في بيتها. بقيت

مشدوها. لم أفهم ما يحدث لي. لم أقرّر مباشرة هذا السفر إلا تحت إلحاحها. ليس من عادتي أن أتطفل على الناس. كانت رسائلها قلقة، ملحاحة. تفيض حبا. والآن تقابلني بهذه الإهانة. لم تلح إذاً على مجيئي إلا لتذيقني هذا الإذلال، وربّما إهانات أخرى تحتفظ بها.

يحرّر المنظر أبعاده، والتي تبتعد أكثر فأكثر. في كل مكان، تكون المسافة علاقة حيّة، قائمة على التبادل. ليس الأمر كذلك هنا. هنا، ترفع رفضا في وجهك. تحفر هاوية من الرفض. لا تفيد علاقة، ولا تبادل. يحدّق فيك المنظر دون أن يراك. لا يوجد إلا من أجل ذاته، ولا يعرف إلا نفسه، وتلتمس حدود عجزك –العجز البشري.

منذ يومين، يغرق هذا المنظر في الضباب. يبدو أنه يعيش مأساة داخلية. وأمام هذه المأساة، يمدّ ستارا من أشجار الصنوبر. وأظن أن الأمر كذلك في الخلف. وستائر أخرى إضافية. في الأمام وفي الخلف. ستار بعد ستار. الخطوط المسنّنة لقمم أشجار الصنوبر، وشائح بلا وزن، سوداء، متدرّجة، يسندها في الهواء بخار بنفسجي اللون. هنا، يُنزَع منك كل شيء، حتى قبل أن يُمنَح لك.

يأتي الثلج بصمته. يُلبِس الأشجارَ فروة بيضاء، ومعها المروج والمنازل. ويأتي الجمود الأبدي. جمود في ليل لاصق بالأرض. الليل وأشياء أخرى تنتظر الليل. الجمود. لن يكون إلا الانتظار الذي لا شفاء منه. لن يكون شيء.

وتلك اللحظة الأخرى. تلك اللحظة المغايرة. تلك المكالمة الهاتفية. بعد ذلك بفترة طويلة، بعد شهور. تلقيت مكالمة على الساعة الثانية صباحا وأدركت في الحين. عرفت هذه المرّة أنها الصائبة، مكالمة الشرّ، الشرّ المكتمل. ذلك أنها كلّمتني مرّتين نهار الأمس، وقبل يومين مرتين أيضا، وكذلك في اليوم السابق. وكانت في كل مرّة تسترسل في مناجاة مختلة، ذاهلة. بسرعة تتحوّل تلك المناجاة إلى خطب وعظ وإرشاد، مرتجلة بنبرات استشراقية. أذهلتني بتلك المعرفة الغرائبية، علم الفلك، وعلم الأساطير وأسرار الكون التي لم أسمعها يوما على لسانها. قالت بأنها مكلّفة بمهمة إعلان يوم القيامة أو مجيء يوم إنقاذ البشر، أو شيء من هذا القبيل. لا أعرف بالتدقيق. ولكن الصوت المرتجف في الجهاز ليس لأحد. لا يشبه صوتها، على أية حال. لا شيء يشبه فاينة في هذه القضية. وأقل من ذلك طريقتها في تحذيري من الأخطار المحدّقة بي : حذار، لا ينبغي أن تخرج، لا ينبغي أن تستقل سيارتك. لا في هذا اليوم ولا في الأيام السبعة المقبلة. ترتكز على سلطة العدد 7 كي تصدّني، وتمنحني إنذارا بعد إنذار. هكذا، أكتشف حسابا مغايرا لحسابي. هزّتني كلماتها ولم أخرج. إلهي، ماذا حدث لها في تلك الأثناء ؟... يبدو أنها بدأت تفقد رشدها، وكل ذلك تحت سمعي !

وفي لحظات صفاء خاطفة، الشيء الذي يحدث لها من حين لآخر، تمطرني بسؤال واحد، نفسه دائما : «ركّز تفكيرك عليّ. ادعُ لي». وهنا يتكسّر صوتها في حشرجة، لاهثا. وخلال تلك

اللحظات التي تسترجع فيها رشدها، ظهر في خطابها الطبيب المرفق بالممرضين، مع والديها.

تخبرني بنبرة فيها قليل من السخرية الحزينة : «سيفعل لي الطبيب شيئا ما». ثمّ تستأنف : «سيفعل لي شيئا». ثم تصرخ : «لا ينبغي ! لا أريد ! «وفيما يخص والديها : «يعتقدان أنهما يعرفان ماذا أصابني». فسّرتُ : يعرفان أنها تمر بنوبة عصبية شرّيرة. وهي : «ولكنهما لا يعرفان شيئا مما أصابني. لا هما، ولا الطبيب، ولا أحد». واصلَت : «تذكّر...». أتذكّر ماذا ؟ نطقت باسم امرأة، لم أدركه جيدا. أظن بأنه لِيلي. كان فعلا اسم امرأة، أنا متأكّد من ذلك، ولكنّني لم أطلب منها تكراره. أمسكت لساني، واكتفيت بالإصغاء. أضافت بعد ذلك مباشرة : «إنهم ينزعون الهاتف من يدي... أنقذني يا صلح، الطبيب سينوّمني !» وبعد ذلك خيّم الصمت.

الصمت. وبعد ذلك، بعد ذلك بفترة طويلة، جاءني الصوت. تارة من هنا، وتارة من هناك، تلعثم في الظلام. مثلما نتكلم حينما لا نعرف مَن يَستمع إلينا، حتى وإن كان شخص يستمع. هكذا يُمكن أن نُكلِّم خَطرا. ويُمكن لهذا الخطر أن يكون كبيرا. وغير محتمل إنْ فكرنا فيه جيدا. صوت سيُكلّم نفسه ببساطة. مثلما نبوح بسرّ، بسرّنا، بصوت خفيض وبلا عنف. بصوت خفيض جدا، وسميك. صوت مبتَلع، جاف، حشرجة وسط الظلام. خشن قليلا. والذي يقول ويكرّر : «لا تتركني. لا

تتركني... ». هل هذا سرّ ؟ إذاً هو سرّ اليأس. حينما يفقد هذا اليأس اسمه، حينما يفقد اسمه وعقله.

حينما يسري في الليل، ولا يعرف الانتشار إلا في الليل. يمرّ، يصل ويجهل ماذا. كائن محتمل، شيء محتمل. وما هو هذا ؟ تأكيد، سؤال ؟ الواحد أو الآخر : ولكن من سيقبل الوزن، فاينة ؟ أبحث عن وجهك في هذا الظلام. لستِ إلا عتمة، وأنا أولِّد ملامحك تحت أصابعي. أرسم حاجبيك. خشنان. أوشّر على أرنبة الأنف. هادئة، باردة. أهدِّئ أهدابك. لطيفة بلطف نظرة. أجد الأذن، أتتبع تلافيف السبابة والإبهام. مُنحنية بحُب. أتأخّر عند ثُغرة الفم. إنها جُسأة. تنزل يدي عبر الرقبة. تتشكّلين تحت يدي. أداعب شعرك وبشرتك بيد أخرى. الشعر والبشرة هما أيضا يداعبانني. ألمس نهدك. يستيقظ، يبحث عن راحة يدي. تنزل راحتي، تنزل إلى غاية بحر الزيت. بطنك، هذا البحر، هذه الزيت. تتسلّق يدي قلاع وركيك، تغامر إلى غاية الفخذين وتنزلق داخل الجزّة.

صقلتك داخل العتمة. أما النور، فإنه أضحى لدينا ليلا واعتداءً وبذرة جحيم.

- 2 -

كانت فاينة، في تلك الأزمنة الأولى، خلال فترات صمتها العصي القهر، تفتح عينيها على آفاق مسكونة. كانت فاينة، المعرّضة لنورها الأسود الذي يجعل السرّ حاضرا باستمرار، تتمزّق في الإصغاء إلى... إلى شبَح. اختارت فاينة ذلك

الشبح كمحاورها الوحيد، بنظرتها الآفلة كجمر تحت الرماد، فيما كان شبح آخر يستغرقها. هكذا كانت فاينة رهينة، مغلوبة على أمرها، تحت رحمة ذلك الشبح وخليط من الغياب والبعد. فاينة التي توجعني. أحبّ ذلك الوجع، أحبّ ذلك الشبح، أحبّ تلك المرأة. كل ذلك الذي يتحداني بتسمية الشيء الذي يبعدني عنها. لقد حاولت أخذ صورة لها مثلما كانت في تلك اللحظات. لم يندهش الفيلم. من يشرح لي هذا الأمر ؟ كيف نفسّر أيضا بأنّ لون شعرها وحاجبيها، الأشقر في الواقع، أشقر يميل نحو الأصهب، يتحوّل إلى السواد في صوَري المتخيّلة – في «كوداك» ذاكرتي ؟ دائما نحو السواد. كانت تذهب لتترك شيئا آخر يريد أخذ مكانها، شيئا يريد أن يصير هي.

استأنفنا نزهنا بالسيارة، والتحقت في ذلك اليوم أيضا وبأسرع وقت ممكن بالريف، أو ما يستحق أن نسمّيه كذلك. ليس الأمر صعبا عند مغادرتنا «مريكور». هكذا، لم أتأخر عن ترك طريق «دْرو» لأتّجه مباشرة نحو الجنوب. مرة أخرى لم يكن بذهني مسار محدّد، ولا أيّ هدف أصبو إليه. على الله توكّلنا ! أسير عبر الطريق إلى حيث يقودني سباقي. على كل حال، كانت الإشارات كثيرة عند مرورنا.

فأخبرتني أنني أسير بسرعة في اتجاه «دامْبيار». تجاوَزنا مُجمّعات سكانية لم تعد تشكّل الضاحية، ولكنها بعيدة عن أن تكون هي الريف الحقيقي : ربّما تجهل هي أيضا طبيعتها، أمن الريف هي أم من المدينة. بدأ عمق البلد يأتي إلينا عبر

وهاده وشعابه. ودخلنا «دامْبيار» دون حتى أن أجد الوقت الكافي للانتباه.

ما إنْ ألقيت نظرة عبر سياج القصر الملفوف بنور عهد آخر حتى صار خلفنا. في الشوارع، كان كل شيء يبدو جميلا جدا، ومنظما جدا، ونظيفا جدا. إنه شيء طبيعي حينما يتعلّق الأمر بالمنازل، وخاصة الفاخرة منها، ولكن حينما ترى الأشجار والحدائق كما لو أنها خرجت للتوّ من عند الحلاق، فذلك لا. أسيرُ بالسرعة الملائمة لعبور المكان، وبمجرّد الخروج منه أزيد في السرعة. ولكنّنا اقتحمنا تجمعا سكانيا آخر. ما اسْمُه ؟ لا أعرف. لم تترك لي لوحة الإشارة المتوارية قليلا فرصةَ إهدائها نظرة ولو خاطفة. الآن، أحرس أن لا تغيب عن بصري الطريق الجيّدة. إنّ تلك التي أسير عليها في هذه اللحظة، وإن لم تكن دربا ترابيا، فإنها لا تختلف عنه كثيرا. مرّة أخرى صادفنا قرية جديدة، وهنا أيضا تتتابَع المنازل الأنيقة، تتنافس جاذبية وتألقا : واجهات جميلة تتعدّد فيها مواد البناء، الحديد المُطرّق، الشرفات الخشبية، والأزهار المتنوعة المزيّنة. يسمّى ذلك المكان «سرناي». بعد دقائق معدودة، وصلنا إلى «لي بورد»، وكان مكانا مغايرا تماما. قرية وسكنات لم تخرج من أيدي مصمّم ديكورات.

بعد أن تجاوزنا «لي بورد»، بدأ ظهور الأراضي غير المزروعة. الأولى التي بقيت عرضة للنباتات البرية، للطبيعة. لمحت متأخرا مكانا لركن السيارة، فضغطت على الفرامل بقوة،

مما جعل فاينة تندفع نحو الأمام وكادت تضرب رأسها على الزجاج. لقد أهملَت رَبْط حزامها الأمني. لا يبدو أنّها تأثّرت، استعادت جلستها على مقعدها، ولم تفقد شيئا من شرودها. دخلتُ حقلا بلا سياج، وأوقفت السيارة بهدوء. مباشرة، انقضّت على أعيننا تلك المساحات الشاسعة المخضرة. كان الريف في الموعد. يبدو أن النور الذي يتنفس الحبور حولنا يتلذّذ من نفسه. ترجّلتُ وشكرت الصدفة، أو أيّ اسم تريدون إعطاءه لها، لأنها قادتنا إلى هذه الأمكنة.

قبل أن أذهب لأفتح لها الباب، كانت فاينة قد خرجَت، بشفتيها المنفرجتين، لتعتنق ذلك الاخضرار، ذلك الفضاء الرحب، كما لو أنّ صوتا كان يناديها. أنظر إليها، صامتة، سائحة في سروال «البلو-جين»، وسترتها ذات النجوم السوداء على عمق أصفر، والتي ألبستها إياها في جزيرة فيلجالا لأقيها من برودة الغسق، منّي إليها - وذلك الاضطراب أيضا؛ اضطرابي برؤيتها تمشي عبر الأشعة الغاضبة التي تلطخ الشمسُ بها كلَّ شجرة، كلّ زهرة، كلّ عشب، **في تلك السترة، بوجودي هنا، في هذه اللحظة، أتابع بعينيّ نفس هذه المرأة مثلما حدث لي هناك، في فيلجالا.** وحدها المسافة بيني وبينها كانت بارزة. ومعها تلك النظرة، كخيط ممتد غير المرئي، تربطنا بلا رجعة.

تعقّبتُ أثرَها وسط تلك الحشائش الحبيّة الصاعدة، المتنامية، المجعّدة. التحقت بها : انطبقت المسافة على نفسها، تحوّل

الخيط إلى نقطة لَأم. أبحرنا معا في لجّ الشعير الجنوني المستّن بقنابر بنفسجية اللون والتي تنشر على سطحها تموّجات بحرية. انساقت الشمس هي أيضا خلف ذلك الابتهاج، فكانت تنعكس وتتموّج كما في سماط بحري. مشينا طويلا كي نصل إلى العمق الذي يسدّه ستار أشجار. في ذلك المكان، صادفنا دربا حفر ساقيته في الكتلة الخضراء. فسلّمنا أنفسنا إليه دون أن نتبادل ولو كلمة واحدة. يحاذي الدرب سياجا من الأسلاك الشائكة. الآن، تسير فاينة إلى الأمام. أتعقّب أثرها كما في يوم البعث، نصعد الواحد على خطى الثاني، وهنا أتعرّف عليها من بين الجميع بفضل شعرها الرقيق المقسّم خلف رأسها.

في المكان الذي يكثر فيه العشب، في الوقت الذي لم أكن أنتظر، جلسَت وعرضَت جسدها للشمس. تردّدت ثمّ جلست أيضا.

الآن، تمدّدَت بكامل طولها، وأغمضَت عينيها. بسرعة فجّرت الحرارة أزهار النسرين على خدَّيها البيضاوَين. ولكنها لم تحرّك ساكنا؛ المُضجَعة. هل نامَت ؟ لم أقترب منها، كانت منغلقة في صمتها، في انفصالها. الميّت لا يتكلّم. ولكنها حيّة. أبهرتها الأشياء ؟ سحرها العالم وربطها إليه بالذهول ؟ إنها تصير العالم تحت عينيّ. بدأت تذوب بداخله.

أنظر إليها، مشدوها، أرتعد بداخلي من مشهد هذه السكينة وهذا الفراغ اللذين حكما على الكلمات، أية كلمات، وصيّراها غير مفيدة، غير قابلة للنطق، وقد أصابها دوار مثل الذي

صعقني. الكلمات الناقصة. إنها ناقصة سواء لطرح سؤال أو لإعطاء الجواب المنتظر. ليس شيئا هينا أن نتمكن من التعبير : فاينة هي حضور فقط. الجواب، لا. إنّها شيءٌ من بين أشياء هذا العالم وتشترك معها في سرّ خفي، ذلك التمزّق الأسود الذي لا يصعد منه سؤال ولا جواب.

يرتكز مرفقاي على ركبتيّ المرتفعتين، أستكشف ببصري هروب آفاق الحقول الواطئة. ينتهي تساؤلي إلى السماء حيث تلتهب ألف شعلة، كي يعود ثانية نحو فاينة. وبعد ذلك، تمدّدْت أنا أيضا على العشب. وواصلْت مُراقبة الهاوية الزرقاء التي بدت من ثانية إلى أخرى على وشك إعلان أمر جلل، ولكنها تحجم عن إطلاقه في الثانية الموالية. أسترق السمع، أراقب وحواسي كلها يقظة. انتصبَت فاينة في خشخشة نباتات مدعوكة، سوّت جلستها، وبدأت تتجرّد من ثيابها كما لو أنها أزعجتها. حركات قليلة، وها هي تتخلص منها، وليس على جسدها شيء. الآن يتلقى العشب عريّها، عريّ زنبقي، بشقرته المخملية عند الإبطين ومولد الفخذين.

وبعد فترة طويلة تكلّمَت. طاف صوتها متردّدا، نفَس على هذا الجسد الذي يحميه الهواء، كما يحمي نفسه بنفسه؛ صوت، شبح صوت آخر، أخرس، بقي على الهامش، بديله المرافق له، كما يرافقنا ظلنا ويحرسنا؛ صوت يحاور نفسه، رعشة أوراق على الشجر، خرير مياه بين ضفتيها، رعشة جسدها على

سريره؛ كلام نوم. قالت فاينة وهي ممدّدة وأهدابها منطبقة على عينيها :

«لم أعد أنا».

انتصبْت، أصغَيت بإمعان. عائد يتكلّم. كانت فائقة الجمال، ببُشرتها المتلألئة، اللبنية اللون، تحت انبعاثها الذي هيّجته الشمس. والعينان اللتان فتحتهما على اتساعهما فجأة : مياه، وفي العمق سرّ المياه. استأنفَت بنفس الصوت الهشّ :

«لا أعرف مَن أنا. لم أعد موجودة».

«لا يا فاينتي، أنت موجودة»، هكذا فكّرت حينما تكلمَت بتلك الطريقة. ولكنني لم أفتح فمي. ذلك أنّني خشيت أن تنغلق على صمتها من جديد.

وضعت يدي على صدرها.

«قد يحدث لنا»

أقوال لم أتمكّن من إمساكها، أقوال تملّصت مني. هل يجب إنكارها، سحبها ؟ ولكن ماذا أقول في مكانها ؟

سألَت : «قد يحدث لنا. ماذا يحدث لنا ؟»

– أن لا نعرف في بعض اللحظات إن كنا نوجد أم لا.

– بل نقوم بتبادل. ويحدث أثناء التبادل.

– ما نوع التبادل ؟

– عفاريت. تبادل العفاريت. الآن هي عندي، وبعد ذلك تكون عندك... ».

بقيت جملتها معلّقة. كم كنت أحمق، بأن تركت نفسي أنساق خلف هذا الحوار : أدركته فجأة فانتابني ندم.

لقد حرّضت اهتمام فاينة. ومع ذلك، ماذا سأقول لها بعد هذا ؟ أيّ شيء ؟ ليست لعبة. استأنفت بالسؤال الوحيد الذي تبادر إلى ذهني :

« متى ؟ »

وقفت وواجهتني :

« ستكون عندك بعد فترة. ليست بالبعيدة ».

رنّ صوتها، طبيعيا تقريبا، وبعد ذلك، إثر هذه الكلمات، تاه بصرها وعادت إلى شرودها. فلن أعرف أبدا ماذا تعني بقولها. لم ألح.

ومع ذلك، بدأت تتكلم، حينما تمدّدت ثانية. كان ذلك غير متوقع أيضا، خاصة بعد الصمت الذي استغرقها، والذي تصورت أنها لن تخرج منه ثانية. كلمة، كلمات آتية بلا شك من أماكن الاعتزال، تلك القلاع التي يَصعُب اقتحامها.

« لا أعرف ماذا فعلت منذ ربع ساعة ! لا أتذكّر شيئا. كل شيء يبتعد بسرعة، ينمحي بسرعة. لست شيئا... ».

تكلّمي فاينة. هذا ما ينبغي أن تفعلينه، هذا هو المهم. هذا ما أنتظره منك. لن تتوقفي.

قلت : «سيعود. كل شيء يعود إلى حالته الطبيعية».

قاطعَتْني، تغيّر صوتها من جديد، يقترب أكثر فأكثر من صوتها الطبيعي. صَوتُها الذي أعرفه جيدا.

«لم أكن سعيدة أبداً... أو ربّما كنت كذلك إلى غاية سن الثالث عشرة. أو الحادي عشرة ؟ لا أعرف. ربّما. ولكنها اللحظة الوحيدة في حياتي...».

أصغيت لتلك الكلمات، وللكلمات الأخرى التي تحجبها، وبتلك التي تختفي خلف الأولى. أمسكت نفسي عن التدخل، انفك لسانها. أضافت :

«انتهى كل شيء. لا يوجد شيء».

قالت، لا يوجد شيء، وبدا صوتها كما لو أنه يزيد حجما، يلتحق هذه المرة بقلب ذلك الشبح الذي لست بحاجة عنده إلى صوت كي تتكلّم. لجأت نظرتها التي اشتعلت خلال ذلك هي الأخرى بداخل ذلك الشبح. استرجع الوجه هيئته المخدّرة، لقد مرّ الشبح فوقه. تركت فاينة جسدها يسقط إلى الخلف، وتمدّدت على العشب ثانية. عارية مثلما كانت.

لم تقطع الخيط مع أصدقاء الليل، فهي لا تزال تحتفظ في عمق عينيها اللتين أغمضتهما الآن انبهار لقائها بهم.

لم تسترجع صفاءها هنا في ضوء النهار. لم يكن ذلك إلا فاصلا.

ألا تخشى أن يصيبها البرد ؟ ربّما من أجل استخدام عبارتها. وربّما لا. الجوّ جميل جدا، والحرارة مرتفعة نوعا ما. فكّرت لحظة أن أغطّيها بسَترتي، ثمّ أحجَمت. يجب أن تبقى هكذا ممنوحة للشمس، في عريها. لا تُسترجَع الحركة الأولى دائما : مددْت يدي عليها ولامست جبينها وصدغها والأهداب المنجذبة على مقلتيها.

- 3 -

هناك تلك اللحظات فاينة، جميع تلك اللحظات. وستبقى بيننا. وحتى بدوننا إنْ أمكَن. أين تكون مُسجّلة ؟ مسجّلة في أيّ مكان. تلك اللحظة على سبيل المثال، في بوهجان حينما قدّمت إيفا الملاحظة، وكانت من بين الأوائل، هكذا ولأوّل مرّة يقول شخص بأنّنا أقرباء، من عائلة واحدة. كان تشابهنا كبيرا –وَهْمٌ عابر ؟– إلى حدّ جذب انتباهها. ولم تتردّد عن الاقتراب منا وإخبارنا به وسط حفل، كان ذلك فوق طاقتها. أكيد أنك تتذكّرين. دون أن ننتمي إلى عالمها بأي شكل من الأشكال. مع أنّها كانت تعرف من تكونين أنت – ومن أين أتَيت أنا. ولكنها أصرّت على إخبارنا، على أنْ تستكشفه لنا.

لم يتوقف الأمر منذ ذلك الحين. فمنذ ذلك اليوم، كان يُوجد في كل مرة شَخصٌ يعتقد واثقا أننا أخ وأخت. إلى غاية ذلك الزوج التونسي، في محلهما بشارع إيميل دوبوا، بباريس. ولم

تتمكن جميع شروحنا، كما مع الآخرين، من إبعادهما عن اعتقادهما الخاطئ. كنا نتسلى بالأمر. كنا مضطربَين ومبتهجَين في آن واحد، دون أن نجرؤ على الاعتراف. ذلك أنّ لا شيء يملك قابلية التشابه عندنا : لا ملامح الوجهَين، ولا تعابيرهما، ولا رسم العيون ولا لونها. كما لا يوجد تماثل في الجسد أيضا، ولا في الهيئة ولا في المظهر. نقوم بجميع هذه الأشياء بشكل مختلف، ونتكلّم بنبرتَين متباينتَين أيضا. ولماذا إذَن ؟

لم نكن الوحيدَين اللذين يحدث لهما مثل هذا الأمر الغريب. مرّ من هنا في لحظة أو في أخرى جميع الذين أحبوا بعضهم بعضا بولع كبير –استيهام، إيحاء ذاتي، يوجد دائما شهود. صرت أعتقد أنه يجب أن يهاجر الواحد باتجاه الثاني. مررْتِ منك إليّ فاينة، ومررتُ منّي إليك. لقد مرّ زمان كنا نشكّل فيه كائنا وحيدا، شخصية واحدة لاثنين، ولا يهمّ من أخذ مكان الآخر. أتذكرين أنّ الناس يجدون متعة لا حدّ لها بإخبارنا بالأمر، قبل أن يطلبوا منا أن نؤكّد لهم بأننا فعلا كنا أخا وأختا. كنا كذلك في تلك اللحظات. لم يخطئوا. كنا أكثر من ذلك : توأمان، الواحد مرآة الآخر، صورة في المرآة. وكنا نغيّر المكان حسب رغبتنا.

بَحَثنا عن بعضنا البعض، انتظرنا بعضنا البعض طويلا، اشتاق الواحد منا إلى الآخر بقوة قبل أنّ نتعارف، ولم يكن ممكنا لنا أن لا نذهب إلى أبعد نقطة ممكنة في تعارفنا، ذلك أنّ حظنا وضعنا الواحد مقابل الثاني وتعرّف علينا. هكذا مشيتِ

أنتِ إلى أن صرتِ أنا، وفي الاتجاه المعاكس، مشيتُ أنا لأصير أنتِ. حينئذ تعرّفتِ على نفسك، وتعرّفتُ أنا على نفسي. ليس مهمًا مَن كان الآخَر لأنه كان الواحد وكان الثاني معا. تجد جميع الأشياء –الوجه، الجسد، الصوت، النظرة– ذاتها في الكل.

إنّ الشيء الذي صرناه، فاينة، ليس له اسم، لم يكن له اسم أبدا. وعندما يكون له اسم، يكون اسما ممنوعا من التداول.

اسمعي ما يقوله ابن عربي :

«إنّ المطلق الظاهر في شكل المرأة عنصر فعال لأنه يمارس مراقبة كلية على مبدأ أنثى الرجل، أي على روحه. من هنا، يصبح الرجل خاضعا ومخلصا للمطلق مثلما يتجلى عند المرأة. يكون المطلق متقبّلا سالبا بدوره، لأنه عندما يظهر في شكل المرأة يخضع مباشرة لمراقبة الرجل ويصبح تحت أوامره. من هنا، فإن تأمل المطلق عند المرأة، يسمح برؤية المظهرين معا، ورؤيتهما بوضوح أكثر مما نراه في جميع الأشكال الأخرى حيث يبرز. لهذا فالمرأة خالقة وليست مخلوقة. تنتمي هاتان الصفتان، الموجب والسالب، إلى جوهر الخالق، وتبرزان جليا في المرأة».

ولكن هذا الاسم. هو نفسه لا يتلفظ به. هو نفسه يحجم عن تسميته.

كما توجد تلك اللحظة أيضا داخل القطار الذي أخذنا إلى الأعلى نحو الدائرة القطبية. قضينا هناك الليلة. تلك اللحظة، في الصباح، بعد أن اغتسلنا وأخذنا فطورنا، رفعتُ ستار

النافذة وتلقيتُ بملء عينيّ العاصفة الجليدية الصهباء للغابة السارية مع المقصورة. الغابة السارية، وأنا مذهول أمام ذلك المنظر، كما لو كنت تحت أثر سحر. تتناثر الجذوع في رقصة هائجة. المروج القابعة عند الأسفل، الأغصان المرشوشة بالجليد والشمس والضباب. أبدا لم يمسكني إحساس بالذهول والسفر بعيدا بمثل هذه الفظاظة. أدركت لبّ الخرافات. وهذا التموّج الأصهب الذي بيّضه الجليد، يغطيه شريط من السماء، شريط رقيق متهدّب، بزرقته الصافية التي تخطف الألباب. كان الحلم يتوجّه منها إلى فاينة، حيث كنت أغرق. كنت أرى من أين تخرج فاينة. من تلك الغابات الساحرة، غابات الذئاب. عيناها أيضا، كانتا عيني ذئبة. كانتا باللون الأخضر، ذلك اللون الذي ينسجم، يتواطأ مع الذهب المسمّر بتلك الأشجار الهاربة، ويقتسم سرّها. وبعد ذلك التفتت، ولففتها بنظرة. كانت منحنية، تَجمَعُ أمتعتَنا، ها قد وصلنا. كان شعرها يميل، أكثر من أي وقت آخر، إلى شُقرة تلك الغابة، ويلمع بنفس السمرة الجليدية المذهّبة.

انتصبَت وواجهتني، فتأملتني بتلك العينين، نفس العينين، بلمعان أكبر من لمعان الشمال القطبي الساطع. أدركت أفكاري. تدرك دائما أفكاري. يقول لي عمق نظرتها بأن نعم، كان مثلما توقعته. فابتسمَت. عينان فسفوريتان، عينا ذئبة فعلا. هي أيضا وافقتني على ذلك. عينان تؤجّجهما لانهائية اللمعان الذي يشعله الجليد فوق الأشجار التي تضغط على القطار بأمواجها. وجهها أيضا، اكتسى، وإلى اليوم، بياضا شفافا

تلهبه حرارة داخلية. أرجع هواء البلد لبشرتها نوعا من العذرية. تنظُر إلى نفسها في مرآة المقصورة، تدور من المرآة باتجاهي، تضحك، ثمّ مرة ثانية، تتأمل صورتها، تنظر إليّ، منعشة، مبتهجة أكثر من ذي قبل. وأسعد من أية لحظة سابقة.

وارتخت الدائرة السحرية التي شدّتنا بداخلها الغابة مثل أسيريَن، فتراجعت الأشجار. أما القطار فجرّ ذيله من كثرة التعب وعلّق ركضه الجنوني أمام منزل كبير عائلي من الخشب المصبوغ بلون أخضر ذابل : إنها المحطّة. لقد وصلنا، أو هكذا تصوّرت؛ كنا بعيدا جدا. كنا أبعد مما يمكن أن نتخيله، بعيدا عن ماذا، مثلا، وهو ما لم أتمكن من تحديده. إنه القطار، فلا يذهب أبعد من هذه المحطة.

كان الهواء الخارجي قارصا فقط، أنا الذي اعتقدت أنه سيجمدنا فورا عند نزولنا. يقرصنا، يثير دموعنا، يحرق آذاننا بذبذبات زجاج سيء الشدّ. مقابل المحطة، كانت تقف حافلة، المحرك مشتعل، تنتظرنا لبقية السفر. لا ينبغي أن ننام. ركضنا وولجنا بداخلها.

وكانت تلك اللحظة أيضا داخل الأتوبيس حيث وجدنا أنفسنا بسرعة في حمام. كان الجوّ دافئا جدا. أسقطنا المعطف أوّلا، ثم السترة. هل سنبقى بالقمصان فقط ؟ لم يحدث لنا بعد، ولكنه سيحدث قريبا. كان الطريق جيدا؛ الأرض مستوية، مُنبسطة. لا أثر لجبال ولو عن بعد. منذ الأزمنة الغابرة، سطّح

الجليد بلد فاينة. هكذا، بقي الأفق، مثل نار شاحبة، منشرحا من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب.

ومع ذلك لم نتوقف عن الدوران. الدورات كثيرة. لتجنّب البحيرات في أغلب الأحيان. البحيرات حاضرة في كل مكان. تمدّ مراياها على يسارك لحظة؛ وبعد فترة قصيرة، تنبثق على يمينك. تتجه نحوها، فتنغلق فجأة خلفك. وتنتظرك أخرى أمامك، تصل إليك بسرعة. بلد يسري من بحيرة إلى بحيرة، ولا يتأقلم إلا مع تلك المياه الراكدة، ولا يحلم إلا بالانعكاسات اللانهائية، لا يبحث إلا عن تيهانه –عن تيهانك أنت. «أَلَمْ تَرَ إِلى رَبّك كيف مدّ النورَ، وَلَوْ شاء لجعله ساكنا ثم جعلنا المياه عليه دليلا». لا ولكن لماذا أغوص في مثل هذه الأقوال ؟ إنّ القول الحق، الأصيل، هو :

«أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ، سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الْشَمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلاً»

هذه الشمس التي تنظر إلينا، والسماء حولها، والهواء في كل مكان. الأولى بشعلتها الساطعة، والثانية بزرقتها اللامتناهية والثالث بكثافته العميقة. ولكن من أجل لاشيء. اخترعت، وأقيمت من أجل مَن، من أجل ماذا. الظاهر أنه لا يقابل ذلك إلا الصمت والعزلة في أي اتجاه ننظر، وإلى أية جهة نولي وجوهنا. عُزلة ترافقك، تسبقك، تواصل السير في صمت. ربّما تتنازل الآن في هذه الدقيقة للغابات، ولكنها غابات قزمة، تشكّلها أشجار الصنوبر والبتولا لا يتجاوز طولها حدّ الكتف

في أقصى الحالات. وها هي تحمّر وتحترق، إلى حدّ السواد. غابات وصلت إلى غاية هنا، وهي عبارة عن سهام وخطاطيف وأشعة الأشواك مُنبّلة على مدى البصر، ولكنها تعبت وبدأت تعود إلى الأرض، باستثناء قممها. تتمدّر أمامك، ولا طائر يُحلّق فوقها. إنها غير مسكونة، نحسّ ذلك عند اقترابنا منها. ولم تتنازل العزلة عن شيء، فقد استبدلت غطاءها المَعثوث بلمعان جليد البحيرات.

من جديد، شفرات الفولاذ خارج أغمدتها تبهر ذلك الامتداد. بحيرات أخرى؛ تظهر على السطح، تتوافد، وتمنح للسماء صورتها الفارغة، وهي خرساء دوما.

لا يبدو لنا أنّنا نتقدّم في هذا المنظر المتوقف. يبدو من العبث محاولة الوصول إلى هدف معلوم. الهدف الأسمى هو السير بلا كلل ولا هدنة. جاءتني هذه الفكرة، بليدة مثلما تبدو. لا تخرج فاينة عن أفكاري. فجفّت حواراتنا من تلقاء نفسها. أنا أيضا أذرع صمتي، ذهابا وإيابا.

لم أنتبه إلا ووجدت الحافلة تتدَحْرج وسط شارع عريض. وها هي تعبر مدينة ببناياتها المتفرقة ومعظمها ذات طابق واحد لا غير، ففتحنا عيوننا. التحقنا بهدف سفرنا الذي تساءلت طويلا إن كان فعلا مبرمجا ومعلوما. أو هكذا خمّنت على الأقل. مدينة بصدد التأسيس، ولا تزال ورشة بعد. مناقع، ركائم من الحصى والرمل، خنادق، حِداب وحُفر؛ اهتزّت الحافلة وخفّضت من سرعتها وانتهى بها المطَاف إلى التوقف. فأهملتنا

وسط ساحة واسعة فارغة وذهبت. كانت الشمس القطبية المحمرّة تغمز لنا وتتدفق مباشرة في عيوننا. أعمتنا، فاينة وأنا، وبدأنا نبحث عن دهليز مظلم نختفي بداخله مثلما تفعل الخُلدان. لمن سنطلب مقصدنا ؟ لا أثر لكائن حي في هذا البلد، لا بشر ولا حيوان.

وبما أنّ فاينة تجيد لغة البلد، فذهبَت للاستكشاف. بقيت كما الحارس بقرب الحقائب. مشيت خطوات على الساحة الإسفلتية، المشمسة، المغبّرة، الفارغة. كان البرد قارصا ولكنه محتمل. في العمق كما على الجوانب، ارتفعت المنازل الجديدة المتشابهة : تتخندق جميعها في غفلة بشكلها المكعّب. ثمّ تعرّفت على سوق كبيرة في بنايات بدت أطول من الأخريات.

خطيبة الذئب

- 1 -

منذ ثلاثة أسابيع، ومع نهاية الظهيرة، كنا عائدَين من إحدى مغامراتنا عبر الجبال والوهاد. خرجنا في الصباح الباكر من مريكور، ولم نأخذ معنا أي أكل : أتكلّم عن نفسي خاصة، ذلك أن فاينة لا تكاد تأكل شيئا. وصلنا إلى «شيفروس» حينما دقّت الخامسة في ساعة البلدية. فكّرت أنه مكان مناسب للتوقف وأخذ أكلة ما.

لم أذهب أبعد من ذلك المكان. لا يزال الوقت مبكرا لنجد مَطعما مفتوحا. (الأمر ممكن هناك في بلدها؛ تستقبل المطاعم الزبائن طوال اليوم.) ولكن المقاهي كانت كثيرة، إلى حدّ صعب علينا الاختيار. (أمّا المقاهي فلا توجد هناك، تقوم المطاعم مقامها.) جذبتنا شرفة إحداها وكانت على شكل برميل، فدخلنا واتّخذنا مكانا وسط النباتات المتسلقة. هكذا سنواصل استنشاق هواء الحقول التي تركناها قبل قليل. طلبت شايا وكعكتين لاثنين.

عندما حطّ النادل الكعكتَين على الطاولة، اندهشت من القطع الكبيرة من التفاح الموضوعة فوقها، عوض القطع الفنية العادية الغارقة في كثير من القشدة وشراب السكّر ومع ذلك فهي بلا طعم. تكون أفضل إن كان طعمها أحلى. إنّ الجلوس مع فاينة في شرفة مقهى يكون مريحا جدا، خاصة إن لم تحتفظ بصمتها إلى النهاية. في انتظار ذلك، كانت عيناها تتنَمّلان بنقاط متلألئة بدَت كما لو أنها سُرقَت من شمس الفضاءات التي غادرناها منذ أقل من نصف ساعة. أكثر من هذا، كانت تدفّق الابتسامات؛ باتجاه الداخل، ولكن غير مهم : تبتسم العيون بعكس أشعتها. ربّما كان ذلك هو الذي جعلني أتكلّم مثلما تكلّمت. تكلّمت تحت رغبة ملحة كما لو كنت بحاجة لإقناعها، لأن تصدّقني. قلت فعلا وأقنعت نفسي إلى حدّ انطلقت في خطابي :

« ... بفضل المؤهلات المسبقة التي لا يمكن أن نمنح لها اسما فعليا، يحدث أن يعيد بعض الأشخاص ارتباطهم بالماضي الأكثر نسيانا، إنهم يملكون هذه الموهبة. الماضي المنسي، جملة قد لا تستقيم. يجب القول بالأحرى الماضي المغيّب، ولكنه يبقى حيا حيث هو ولا يبله شيء. يملك هؤلاء الأشخاص قدرة على العودة إلى العالم الذي سبق عالمنا، ليأتوننا بأخباره. إنهم أشبه بحاملي الرسائل. دون أن يدروا طبعا، في غفلة من أمرهم. قد يعرف جميعنا مثل هذه اللحظات في فترة ما من حياتنا. الفرق هو أنها قليلة عندنا، بينما تكثر عندهم. ولا تنقص الفرص التي تتيه فيها البشرية، فيعود إليهم أمر إخبارنا

وتخليصنا من الإنذارات المنقذة، اعتمادا على البشري الذي يصنع الإنسان. إنهم هنا من أجل هذا. إذا أردنا سماعها، إذا لم يشوّش على أصواتهم هدير السيارات في الأرض والطائرات في الهواء، فتصبح منغلقة على أسماعنا، هي التي لا تكاد تُسمَع في العادة. وليست السيارات ولا الطائرات هي المعيقة، وإنما نحن الذين نخنق أصواتهم ونسجنهم. من أجلهم ومن أجل هدوئهم. نُعلن للملأ أنهم فقدوا رشدهم، وأنه من الخطر أن نتركهم طلقاء. ولكن الخطر هم نحن، نحن الأقوياء بعقلنا. يصعُب جدا خدمَة البشر، العمل من أجل إسعادهم. يَجب على الملائكة التي تسهر على راحتهم من الضفة الأخرى أن تهزّ كياننا بين الفينة والأخرى. ليس لأنها تريد لنا الشرّ؛ وإنما نصبح في حالة أحسن على أيديها...».

كانت فاينة تستمع بعناية كما لم تفعله إلى غاية هذا اليوم. كانَت تصغي بذلك الشيء، بهيئة ذلك الذي يعود من بعيد وهو لا يعود. فاينة التي تراني وتستعيد ملامحها شيئا من حيويتها. لم أجد الوقت لإتمام جملتي حتى اقتربَت يدها فوق الطاولة وانزلقت بيدي. تمثال يدبّ حيوية. وها هي تتكلّم. تتكلم بكلام جديد وجليّ. وتذكر الزمن المشطوب، المهمش، غير قابل للشراء، برغم قربه. زمن عيادة المصحة. وبالذات ذلك الزمن. قالت :

«كنت في حالة مريحة. وأقمت صداقات جيدة. كنا نرسم كثيرا. لقد رأيت بنفسك رسوماتي المائية لتلك الفترة. كما

تعلّمت استخدام آلة الخياطة. وصنعت وسائد. لقد وزّعتها جميعا هناك».

وتضحك. أمدّ أذني لتلك الضحكة وللصدى الذي تتركه في نفسي. هل حدثت أشياء أخرى في تلك المصحّة غير الرسم والخياطة ؟ هذا أفضل، إن كانت هذه الذكريات الوحيدة التي علقت بذهنها. أضافت :

«سآخذك إلى هناك يوما».

تأخذينني ؟ انهار بداخلي ذلك الآخر الذي يتكلم، يستمع، يراقب.

كان جوابها الوحيد الأكيد لارتجالي الطويل. كانت تنتظر إذا كان بإمكانها أن تثق فيّ كي تسرّني. تَطلَّب ذلك أسابيع وشهور. لم تذهب هباءً تلك الأسابيع والشهور.

كانت نهاية ذلك اليوم تعتني بي أكثر من مدفأة قرمزية عبر تلك النباتات المتسلّقة. لم تكد فاينة تمسّ كعكتها، ولكنها شربت الشاي. إنها الآن حاضرة : لكل شيء، لي وللعالم. بنظراتها، بحركاتها. حاضرة كلية.

ضاعف نور الغروب من كثافته، عصيّ الإخماد – حرارة صمّاء في ظهري. قليل من الناس يروحون ويجيئون في منبسط الساحة؛ إنها فترة العطل. تذكّرت فاينة من نفسها أنه حان وقت الرجوع. ولكنني واصلت النظر إلى عينيها... سرّ المياه الغاصة بالنور، متغيّرة وثابتة : نسلّم لها مصيرَنا، نبوح لها

بأسرارنا. ومع ذلك، لم تجد هي وابتسامتها إلا كلمة واحدة تقولها : لا، وسؤالا واحدا تواجهني به : **لماذا ؟** لا يمكن لي التملّص من هذا السؤال، يمنح نفسه من تلقاء نفسه مثل جواب. **وهكذا تدرك أنها باشرت معك حوارا بلا كلمات، تَشكّل مما يخاف القلب دائما من الاعتراف به. حوار؛ لن يتوقف أبدا، لي اليقين بذلك، همسة تشقّ طريقها في أكثر أماكن اللحم ظلاما. ذلك الذي يتكلّم حينما تتكلّم ويقول لك دون أي هدف آخر غير القول. مع تلك الابتسامة المتواصلة، نور أخضر لجنّة خاطفة، أصبحَت فجأة ممكنة. وصرخة النور تلك المتواصلة.**

قالت فاينة بصوت مرح، صوت خلته ساخرا من عمق جوارحي : «هيا، نذهب ؟»

تواصلت خرجاتنا، متشابهة من يوم لآخر، ولكل واحدة منها أسلّم نفسي للصدفة كي تحدّد لنا هدفا وتقودنا إليه. لقد أدّت مهمتها كما ينبغي. يبقى الهدف الذي يدفعني لمباشرة تلك الجولات الريفية ثابتا : أن أرجع لفاينة عنصرها الأصلي، الطبيعة. كان يجب عليّ فعل ذلك، كانت هي ترغب في ذلك بكل كيانها. كانت قواها تتجدّد منها. سيجعل منها معجزة، ذلك الحمام الذي تأخذه خلال غوصنا في عرض الجبال والوهاد، وانحرافاتنا الطويلة في المروج، واندفاعاتنا تحت ظلال الغابات. كلما كانت الأمكنة التي نغامر إلى وطء أرضيتها أكثر توَحشا، وأكثر عزلة، كلما تنتعش وتسترجع حيويتها. كان

ذلك يُرى بالعين المجرّدة. ينتمي بلدها الأصلي إلى الاخضرار وإلى المياه أكثر من انتمائه إلى الإنسان. هي أيضا كائنة مائية ونباتية، ومستعدة دوما للذوبان معها، فلا تعرف العيش ولا التنفس إلا في الهواء الطلق. بمجرد خروجنا من السيارة، تنطلق دون أن تنتظرني، تداعب بيديها الحشائش المرتفعة. لمساتها الأولى، اتصالاتها الأولى، فلا يمكن أن تستغني عنها. أتركها تذهب. أتركها تبحث عن تلك الألفة التي تحنّ إليها، وتحتاج إليها في لحظات الوجع، لحظات العصاب القصوى. بلا مبالاة، تقطف زهرة من هنا، وعودا من هناك، وأنا أتقفى أثرها عن بعد. تلتفت من تلقاء نفسها وتناديني لتطلب مني اسم هذه النبتة أو تلك، اسم هذه الشجرة أو تلك. لها باع طويل في عالم النباتات، أفضل مني، ولكن في لغتها طبعا. نتبادل تلك الكلمات القليلة، فتستأنف جولاتها الصامتة، المتأملة. لم يحدث أنْ أقيم بيننا حوار حقيقي. إن الكلمات التي يحدث لأحدنا (هي أو أنا) أن يقولها تطوف في الفضاء بلا روابط، حيث يجتهد الآخر (أنا أو هي) للإمساك بها. ولكنه آتٍ لا ريب فيه، شيء أراه، أحسّ بقدومه.

ذات يوم، قرّرت أخذها إلى باريس، لتغيير الجوّ. فكّرت أنه من الواجب أن ترى الناس، وتتعلّم ثانية العيش في المجتمع، العودة إلى الحشود، التذكر بوجود المحلات والمقاهي والمتاحف. فعلت ذلك وأنا أفكر صادقا بأنه لا يمكنها مواصلة العيش منفصلة عن العالم، بل أكثر من هذا : أن تكون قادرة على مواجهته.

كانت النتيجة كارثية.

- 2 -

يوشك شهر جويلية على نهايته. ألاحظ عند فاينة علامات واضحة من الخمود، ومع ذلك كانت حالتها تتحسّن. ذات ليلة خاصة، حدث شيء؛ أو كاد يحدث. أو بالأحرى، حدث في صبيحة الغد. هذا هو، في صبيحة الغد. لم أتَوَقّع أنْ نقضيها معا، تلك الليلة. أخرجتها مرّة أخرى من أجل دورة في باريس. كنت مصرا على ذلك. لم أرد أن أتركها تحت تأثير ذلك الرعب الذي أوْحَتها لها المدينة الكبيرة قبل أيام قليلة. ولكنّها قاومَت أحسن هذه المرّة. برغم اندهاشها واضطرابها الظاهرين من تشابك الأزقة وحركة السيارات الكثيفة وصخب العيش، كانت تتشبث بذراعي بعصبية، وتمشي ملتصقة بي. الهيئة التي كانت عليها ؟ هيئة طائر الخَبَل الذي تفاجئه شمس النهار. ثمّ شيئا فشيئا، استوت خطواتها، فاستعادت قليلا من هيئتها السابقة المنشرحة. لم تعد تشدّ ذراعي كالغريقة، نمشي اليد في اليد. تجوّلنا على أرصفة نهر السين طويلا. وصلنا إلى ساحة «الشاتلي»، ثمّ أكملنا السير إلى غاية ساحة «بوبور»، حيث شربنا قهوة. عند اقتراب الليل، هممت بإرجاعها إلى مريكور.

حينئذ طرحت عليّ السؤال، كان أقل من سؤال وأكثر من دعاء؛ كانت عيناها ترسلانه إليّ كما شفتيها :

«ألا يمكن أن نبقى معا ؟»

لم يكن بمقدوري أنْ أرفُض لها مثل هذا الطلب. ابتداء من تلك اللحظة، كان فندق السيّدة باربو، خارج باريس، ينتظرنا. فذهبنا إليه. ابتسم لنا الحظ : رغم الساعة المتأخرة نوعا ما، وجدنا غرفة داخل تلك الفيللا المحاطة بالاخضرار. لقد استبق الحظ الذي ابتسم لنا ما سيحدث بعد ذلك. وجدنا السيّدة باربو، البشوشة، الرائعة في رفاهية استداراتها، تستعد لتناول عشائها. تأكل من طبخها الخاص وفي محلها الذي لم يرتده في ذلك المساء إلا زبونان، رجل وامرأة. وافقَت في التوّ على تحضير وجبة خفيفة لنا. في ظلمة الحديقة، حينما قطعناها لنلتحق بغرفتنا، حيّتنا جميع الأشجار بارتجاف خفيف. استقبلنا كلب ضخم صموت بحفاوة ظاهرة. فبعد الأشجار، تعرّف علينا هو أيضا.

وفي الصباح، عند تناول الفطور، لاحظت التغيير. أكيد أنّ شيئا قد حدث. هذه الليلة ؟ في البداية، لم أنبهر إلا بالجمال الجديد الذي اكتشفته في فاينة. الجمال المغاير. كنا جالسَين في الأسفل، داخل الصالة التي تقوم مقام المقهى. أعطت فاينة ظهرها لنور النهار الذي تسدّه النوافذ، وتخفِّف من وطئه ستائر صغيرة من الدنتيلا –هذه النوافذ، الطاولات الضخمة، المقاعد اللامعة، والزخارف الجدارية، منظر الثلج الذي يغطي جدارا بأكمله : فكأننا فعلا في شالي سويسري. تبتسم فاينة؛ تبتسم لي كما لو أنها تظهر لي تحوّلها. ولم أكن أريد إلا التصديق بما يحدث من معجزة، لا أطلب إلا هذا، أريده بجنون. عام فوقها النور الصباحي الأبيض الذي يرتعد في النوافذ، يُغرقها،

يُداعبها. لم تنبس ببنت شفة، ولكنها واصلت ابتسامتها، فانفرجت شفتاها على بياض أسنانها الساطع. ربّما كانت تتسلى باندهاشي. ليست فاينة السابقة التي أراها أمامي، ولا فاينة الأيام الأخيرة كذلك. فكّرت : «أيقونة». فكّرت أيضا في ذهولي واضطرابي : «تشبه أيقونة حقا بهيئتها الجديدة». وأيضا : «جمال عهد آخر، بعيد جدا. أيقونة». جلبَت للنّهار هذه الرائعة الليلية وأثقلت بها الفضاء، واللحظة الراهنة. توجد بلا شك في آلام الكون ثغرة يمكن للأمل أن ينزلق عبرها. تلتحق فاينة، المشكّلة على صورة العذراء الروسية، المسيحية البدائية، الأرثوذوكسية المؤمنة بالوحي، بنعمتها وعينيها الطويلتين المتأملتين، بماضيها وأصلها «عذراء الأيقونة».

بقيت هنا وكلها سكون ولطف، بوجهها الشبيه بهالة حول نظرتها. تبطل مفهوم العمر ذاته

بهيئة الشباب الذي ارتسم على محياها. إنها هنا، توجد هنا فقط، هي ذاتها والكائن الذي بداخلها المتجاهل للزمن.

جازفت ومازحتها :

«تحتفظين بمخزن المتزوجة الجديدة. يبدو لي أنني أمام أيقونة. أليس هذا كفرا بالنسبة إليك ؟ ومع ذلك، أقوله. نعم، أيقونة وسأعبدك».

تعمّقت ابتسامتها أكثر. لم تخرج عن صمتها. «**وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مَرْيَمَ إِذِ انْتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا ؛ فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا**»؛

إنها هنا شخصيا، وتعود من منفاها وتفتح عينيها، وتنظر. هل رجعت كلية، أم أنها بصدد الرجوع، وتفعل ذلك بخطوات متردّدة ؟ أصبح عالمنا غريبا في عينيها، غير مفهوم. ولكنه مليء بالحقيقة الجديدة التي جلبتها من هناك. إن النظرة التي تلقيها على كل شيء هي نظرة اعتراف.

تَشوّشَ بَصري فجأة. سألتني :

«ما بك، صلح ؟»

بسبابتها المنطوية، مسحَت على خدّي دموعي التي سالت. قلت :

«لا شيء، صدِّقيني».

فذهبنا ثانية داخل الاخضرار الخافق، باتّجاه انبهار هذه الصبيحة الصيفية. /«**فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ؛ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَحْمَنِ...**»/

- 3 -

وتلك الصبيحة الأخرى، بعد أيام قليلة، وعيون فاينة الخضراء مثل شجرة الحياة الذهبية، والتي لم تتغيّر : بتلك النظرة الضاحكة التي ترمقني بها. وذلك الاخضرار الفاتن الذي تحتفظ به دوما. استعادت تميّزها الشبيه بسماء منجّمة، ببُرج تتخلله ضحكات في كامل أجزائه الأكثر حميمية، ولكنها لا تضحك.

وقفت لإزاحة الستائر، تلك الكبيرة، الحالكة. كان ذلك في فندق آخر، في فَرْساي. لم أترك إلا الستائر البيضاء الخفيفة، التي تأخذ من النهار شفافيته، والتحقت بمكاني قربها. كنا نستعد لأخذ فطور الصباح في السرير، شيء غير معروف في بلدها. هي التي أخذت سماعة الهاتف واتصلت بالجناح الخاص بهذه الخدمة وأملت طلباتها. رَكَضْنا نحو غرفة الحمام لنرمي قليلا من الماء على وجوهنا ونمشط شعرنا، في انتظار التزيّن الكامل قبل الخروج. سمعنا دقات على الباب. انزلقنا بسرعة تحت الغطاء. دخَل رجُل مُهندَم وأنيق حاملا بين يديه صينية الفطور : إنه مدير الفندق شخصيا. تردّد لحظة : أشرتُ له الطاولة الموجودة على يمين السرير. حطّ عليها الصينية وانسحب بسرعة، متلفظا باعتذارات، لا أعرف لماذا.

بعد ذلك خرجنا إلى فرساي. فرساي الساعات الأولى من الصباح، بشوارعه الفارغة. ليس لدينا ما نقوله. الجَوّ جَميل لأوّل مرة منذ أيام عديدة. ليس جوّا صَيفيا مثلما نرغب أن يكون، ولكننا نحسّ بأجواء الخريف داخل الضباب وبرودته، الرقيقان المتعانقان، ليمنحا شفافية نسيج مَوصلي. إنّه جوّي المفضّل، يناسبني، يثير عواطفي. أمشي مستعدا خفيفا، مثلما يمكن للمرء أن يكون في أحسن أوقاته، وفاينة في ذراعي، كلها تورّد وابتسامات، بدَت هي أيضا خفيفة، منشرحة، وقد خرجَت توّا من حمامها، في هذا اليوم ذي الأفضال المطهِّرة.

كيف قضينا يومنا ؟ أوّلا في البحث داخل محلات فرساي عن هدية لأمها، هدية ينبغي أن تكون في ذهن صديقتي بالضرورة حقيبة يد. فقضيناه في ذهاب وإياب في أزقة تلك المدينة الملكية في بحث دؤوب، ولكننا عجزنا عن إيجادها. أقصد تلك الحقيبة التي نبحث عنها والتي ستحملها فاينة قريبا لأمها. ثمّ واصلنا تجوالنا في باريس، وقد بادرنا إلى ذلك السفر بإيحاء مني. عند مرورنا عبر السوق الكبير على الهواء الطلق، اشترينا كيلوغراما من المشمش. كيلوغرام أكلناه أثناء الطريق. ومحطّة «سان لازار» بحشودها الدائمة. والحي بمشاته، وازدحامه وحافلاته وسياراته... واكتشاف الهدية عن طريق الصدفة. تلك التي كنا نبحث عنها. الوحيدة التي تليق لأمّ فاينة. وسرور فاينة بذلك الاكتشاف.

إنّ ذلك الانتصار المضاف لسعادتنا أرجع لنا حريتنا. عندئذ تواصلت نزهتنا دون استعجال، دون هدف، على طول الواجهات الزجاجية. وأمام أكشاك شارع «بودابِسْت»، أشرت لفاينة :

«ربّما كان هذا الشارع أحد أحر شوارع باريس، في المتر المربّع. حتى في مقارنته مع شارع «بيغال».

أرادَت أن تتأكّد من نفسها. فقصدنا الشارع المذكور. كان غاصا بالسيّدات نصف عاريات، يسندن ظهورهن إلى جدران المنازل التي تكون بلا شك قد انهارت لولاهن. راحت فاينة تحدّقهن بعناية مثلما يفعلن أيضا. أغلبهن في عمرها، وكلهن جميلات تقريبا، ولم تفكّر إحداهن أن تعرض عليّ خدماتها

مثلما يفعلن عندما أمر بمفردي. عندما وصلنا إلى ساحة بودابِسْت، عدنا أدراجنا عبر شارع أمستردام. فكانت الساعة حوالَي منتصف النهار، ساعة التساؤل عن المكان الذي نأخذ فيه غداءنا.

رغبَت فاينة أن نعود إلى مطعم/مقهى الحي الذي قصدناه مرّة، هي التي ذكّرتني، برفقة أمّها قبل سنة من ذلك أو أزيد حينما جاءت لرؤيتها. نعم، تريد أنْ تعود إلى ذلك المكان. عبّرَت عن رغبتها بابتسامة عريضة باتجاهي. ليكن، أتذكّر المكان. فقُدتها إليه. كانت طاولة صغيرة شاغرة عندما دخلنا. أسرَعنا الخطى نحوها وجلسنا وسط ضوضاء الحوارات، وصرير الكراسي والأواني والازدحامات المتواصلة، والناس الخارجين الداخلين. ومع ذلك، كان الجوّ مرحا، طفوليا. وأنا كنت سعيدا برفقة فاينة، سعيدا من أجل حقيبة اليد، سعيدا لنفسي. أنظر إليها ولا أشبع من جاذبية جمالها. تنظر إليّ وتبتسم. كان سحر جمالها يقطر من ذقنها.

أبتسم أيضا لسبب آخر. أتذكّر اهتمامها بالعاهرات قبل قليل في شارع بودابِسْت. إنه فضول قديم، حسب ذاكرتي، ليس وليد نزهتنا؛ -وُلِد من انجذاب أو من نفور : فيزيائي، أخلاقي ؟ يصعب عليّ تحديده. سرّ الكائنات. كانت دوما تبدي ملاحظات حولهن، وملاحظات غير متوقّعة. ذات ظهيرة، كنا نهبط عبر شارع «مين»، حيث تمكنت من ركن سيارتي، فأوقفت نقاشنا دون سابق إنذار لتسألني بلهف :

«صلح، هل ذهبت كثيرا عند العاهرات ؟»

تكون قد رأت واحدة تمرّ غير بعيد عنّا، أو هكذا خُيِّل لها. لا يُمكنني شرْحَ هذا السؤال المباغت الذي شرّفتني به إلا بمثل هذه المصادفة.

حينما يحدث لها أن تتحدّث عن بعض النساء المتعوّدات على حضور حفلات افتتاح المعارض الفنية أو الملتقيات وإن كانت علمية صرفة، تقول في كل مرّة : «إنهن عاهرات مثقفات». لا تخاف من الكلمات، على الأقل ليس من هذه بالذات.

مثال آخر : عند خروجنا من حفل فني، وقعنا بالصدفة على بعض معارفي وقدّمت لهم فاينة. بعد تبادل مجاملات لطيفة، افترقنا. وماذا حدث بعد ذلك ؟ رفيقتي تدخل في غضب رهيب. قالت مزمجرة :

«لا نقدّم بهذه الطريقة إلا عاهرة».

كانت النار تلهب خديها، وعيناها ترسلان شرارات، من تلك التي تسوط سماء صافية بلا سبب، ويبدو لي أنها كتمت غيظها قليلا.

لم أصدّق ما أسمعه من رفيقتي :

«لماذا، أية طريقة ؟

ها هي فاينة ! هل هذه طريقة نقدّم بها شخصا ؟»

ما كان ينبغي عليّ أن أضحك، أو أقول لها أنها فاتنة.

ابتسَمتُ لتلك الذكرى وأنا جالس في ذلك المطعم/المقهى الذي كنا ننتظر وصول طلباتنا، وكانت هي تسألني في تلك اللحظات دون أن أستمع إليها جيدا وسط تلك الضوضاء المتصاعدة :

« أين ذهبْتَ ؟ »

هزَّتْ يدي الموضوعة أمامها فوق الطاولة.

«صُلْح، إنّي هنا ».

تَفرّسْتها. صحيح، إنها هنا، بكامل كيانها، بكامل جمالها. أنا الغائب، المندهش. أضافت مازحة :

« غائب في جميع الأوقات، أليس كذلك ؟ »

كانت هنا، فرُحْت أبحث عنها في مكان آخر.

وإلى اليوم، لا أزال، بين الفينة والأخرى، أغرق في ذكرياتي معك، فاينة، أتعقّب آثارك، أنت السريعة في تنبيهي بشرودي. لَوْمٌ لن أرفع صوتي ضده، ليس فعلا لائقا، خاصة حينما تُثبَت تهمتك، تهمة شائعة بل وتتضاعف مع مرور الزمن. ومع هذا، هل تتركيني أعترف لكِ بأنني، دائما وفي مثل هذه الساعة كما في الساعات الأخرى، وبرغم التهمة الثابتة، لا أمنح لنفسي أيّ راحة، لا أعطيها أيّ توقف ؟

حتى وإنْ أتقنْتِ اللعبةَ بجواب مثل : «ليس عليك أن تثقل كاهلك بمثل هذا الشقاء. إنّي لك كلية، وممنوحة لك بكامل جوارحي». ومع ذلك، هناك شيء ينقص في هذا الجواب – إذا كنتِ تقصدين أنّني أبحث بعيدا عما هو موجود بقربي، وأنّ هذا دأبي، أغذّي التخيلات الشريرة؛ في هذه الحالة، فأنتِ مخطئة. لا أطمح إلا أن أكون بقربك، أطاردك أنت فقط، ولكَن داخل حقيقتك، حقيقة بلا حجاب. نعم، حقيقة بلا حجاب.

طوال حياتي، لم أحلم بتلقي أكثر من هذا، من أيٍّ كان، ليس هذا هو السؤال. يكمن السؤال في معرفة متى تُحبّ، ومَن تُحبّ. إنّ حُبّي لكِ يَمنحني دوما إحساسا بعدم تحقيق هدفه. لستِ أبدا تلك التي أتصوّرها في لحظة معيّنة.

- 4 -

هذا الصباح من 16 أوت، أوّل بطاقة بريدية من فاينة. أرسلَتها من شمال ألمانيا، المكان الذي قضى ثلاثتهم فيه ليلتَهم قبل ركوب الباخرة، وسيارتهم كذلك، لمواصلة سفرهم. أمسكُها بين يديّ، هذه البطاقة، نَسْخ للوحة «هيجو سيمبرغ» بعنوانها : «ساغة». ماذا تمثل ؟ خطيبة الذئب. المرأة التي تحوّلت إلى ذئبة من أجل حبّ ذئب، في تلك البلدان. بطاقة سبق لفاينة أن بعثتها لي، وأكيد أنها نسيَت. إلا إذا فعلت ذلك بلا قصد، ويكون الشبح الذي لا اسم له هو الذي أوحى لها أن تفعل. الشبح الوفي. إنها طريقتها في تسيير حياتها. لم يكن لديها ما تكتب به، فوضع القدر هذه البطاقة تحت يديها.

إنها الصُدف. يمكننا الإفاضة في التأويل حول هذا الموضوع. هناك الكثير والكثير منذ أن عرفتها، أتحدّث عن الصُدَف. والآن هذه الأخيرة : طوال الليل، عذّبتني قصة المرأة التي لم تتمكن من مقاومة نداء الذئب، وهذا الصباح تصل البطاقة.

كانت فاينة تعرف هذه القصة منذ زمن بعيد، قصة من بلدها. ولكنها لم تكن تعرف آنذاك أنها ستكون قصتها. ليس بعد.

الآن تعرفها.

لم تكن تعرف أن ذئبا سيأتي لاختطافها، والآن تعرف. كان بإمكانها أن تتوقع ذلك، أن تعدّ نفسها، هي التي تعرف القصة. ولكنها كانت مجرّد قصة بالنسبة إليها. قصة لا غير. ولم تكن تنتظر، لم تكن مستعدّة. الآن تعرف أنها ليست مجرد قصة. أكيد أنها أدركت ذلك في نهاية المطاف.

تطلب منها وقت. في بداية الأمر، بدأت تحكي القصة بمفردها. هكذا أعتقد. ثمّ حكتها لي دون أنْ أطلب منها ذلك. قصة تلك المرأة التي تركت كل شيء، البيت والأطفال والزوج، لتتبع الذئب. قصة هذا الذئب وتلك المرأة اللذين ذهبا معا. فأصبحت قصتها.

كانت تعود من حين لآخر لتأخذ مكانها، أو تحاول أخذه، بجانب أطفالها، بإزاء زوجها. أن تفعل مثل السابق، أن تعيش ثانية حياة امرأة بشرية. لم تكن تصبر على ذلك وقتا طويلا، لا

تستطيع، لا تتحمّل. الذئب ينقصها، كانت رغبة الذئب أقوى منها. كان قلبها يخفق من أجله بقوة كبيرة.

فتذهب لتلتحق به. فاينة، إنك تعرفين القصة. وإذا كنت أنا في ذلك العهد أجهل القصة، فإنها تهمّني. يجب لمثل هذه الأشياء أن تحدث كما يجب أن تحدث دائما، إنه أمر ضروري. يجب أن يحدث لك، ويحدث لنا. فأصبحت، برفقتي، ذئبة أكثر فأكثر.

الآن، انسَي إن استطعتِ.

ولكن من بعث البطاقة ؟ فاينة ؟ الذئبة ؟

- 5 -

هتفت لي منذ حوالي خمس دقائق. إنها في حالة أفضل مما نتصوّره. قالتها بعبارات مشابهة. تأرجحت حالتها قليلا، ولكنها لم تعرف سقطة جديدة.

مع أنّي تلقيتُ رسالة منها الخميس الماضي، بعد البطاقة، جعلتني أخشى تدهور صحتها من جديد، وقبل قليل عندما تعرّفت على صوتها في الهاتف تساءلت عن أية كارثة ستعلنها لي. ولكن لا بأس، غيمة عابرة.

أعترف أنّ مكالمتها الهاتفية أدهشتني. لم أكن أتوقّع أن تسترجع عافيتها بتلك السرعة وتتمكن من مكالمتي. إنها إذا في أحسن حال.

اقتُرح عليها من جديد أن تُدرّس في الكلية. كانت متشوقة إلى القبول. قلت :

«لا تُضيِّعي مثل هذه الفرصة».

ستبقى هناك، ولن تعود. لم تكن إلا صوتا ضعيفا في البعيد.

أردت اختراقَ القدر، فاينة، والارتباط بحبي. ولكن القدر لا يُخترَق. يتصنّع الاستسلام. لحظة، ثمّ يسترجع مساره وينتصر، أكثر إجلالا من ذي قبل. إنّه هو، ذلك الذئب الذي استولى عليك ! ويوجد هناك، يسكن الأراضي نفسها التي تسكنينها.

أتمنى أن لا توافقين على سماع أولئك الذين يمنحونك هذا الاسم : ذئبة.

فهرس

أنا المسمّاة فايْنَة 09
عطر ثلج 11
لكْس 27
اللحم والصوت 45
إذ لا جحيم 65
فاينة في المنظر 81
أنا المسمّى صُلْح 107
الحدود العارية. 109
القناع المبتسم 133
الشبح الأصلي 165
خطيبة الذئب 191